ÖMER SEVİNÇGÜL

عمر سفينج غول

الحياة الأبديّة تنتظرك

ترجمة:

أحمد نور الدين قطان

للنشر والتوزيع

عمر سفيج غول

قرّر أن يكون كاتبًا عندما كان طالبًا في الثانوية. اشتُهرَ بوصفِهِ «كاتبَ الكتب الشبابية»؛ لأنّ كتبه تخاطب القرّاء الشباب. احتلت مقالاته، وقَصصه مكانًا مرموقًا في المجلّات الأدبية. عمل مهندسًا في إحدى مؤسّسات القطاع العام لمدّة عشر سنوات. أسّس في عام 1996م المركز الثقافي الحديث، وأصدر مع مجموعة من طلبة الثانويات والجامعات مجلة: (لا اسم له /آدي يوق).

أنتج برامج شبابية ذات موضوعات فنّية، وأدبيّة، وفلسفية في القنوات التلفازيّة. شارك في العديد من الندوات الثقافية الموجّهة للشباب داخل تركيا وخارجها، وقدّم محاضرات في ذلك. أسس في سنة 2005م دار نشر (كارب دايم)، وعمل مستشارًا لها تسع سنوات. أسهم في بناء الكتّاب الشباب.

تُرْجِمَتْ آثارُهُ إلى الإنجليزية، والأرناؤوطيّة، والبوسنية، والألمانية.

www.omersevincgul.com
facebook.com/omersevincgul
twitter.com/omersevincgul
instagram.com/omersevincgul

مؤلّفاته بالتركيّة:

أعِدْ إلَيَّ نومي!
لماذا يا أمي لا أيدي للقطط؟
الرجل الحافل بالأسرار.
بلد الظلال الغامضة.
لا يفهمني إلّا أنت.
أصغِ لصوت قلبك.
دونك لكن معك.
الحياة عندما نفرح جميلة.
أريد أن أكون كاتبًا.
كنت خزينة سِرّيّة.
ثمّة «شخص ما» يحبّك.
الحياة الأبديّة تنتظرك.
كلّ شيء ينتظر أوانه.
أنت بحاجة إلى عالم جديد!
الفلسفة السهلة القصيرة الممتعة.
المعجم الصغير.

مؤلّفاته المترجمة إلى الإنجليزيّة:

الحياة الأبديّة تنتظرك.
الفلسفة السهلة القصيرة الممتعة.
ثمّة «شخص ما» يحبّك.
الحياة عندما نفرح جميلة.
ستجدني يا ميرفين إذا كنت تبحث عني.

مؤلّفاته المترجمة إلى الألمانية:

ثمّة «شخص ما» يحبّك.
الحياة الأبدية تنتظرك.
أنت بحاجة إلى عالم جديد!
لم أستطع تركك لنفسك.
ستجدني يا ميرفين إذا كنت تبحث عني.
كلُّ شيء ينتظر أوانه.
ثِقْ في صاحب قلبك.
دونَكَ لكنْ مَعَك.

مؤلّفاته المترجمة إلى البوسنية:

Ima Neko Ko Te Voli
مؤلّفاته المترجمة إلى الأرناؤوطية:
هذه هي الحياة.

أنا رجل ثلجي

رأيت رجال الثلج ينتظرون بيوتًا ثلجية.
ثلجِ، ثلجِ، ثلجِ!
يذوبُ، ويجري.
رأيت وقت الفلق.
ستأتي كرةٌ كبيرةٌ.
إنّها حارَّة.
إرتجفت.
لُذتُ بالظلِّ.
تعلّقت بالريح.
إنني أذوب.
بدايتي سائل ماء.
طيران.
ونهايتي بخار!
أمسكْ بي يا حبيبي!

-1-

نصحني بك أحدُ أصدقائي الذين لم ألتقِ بهم منذ وقت طويل. تقابلنا في أحد المقاهي حين كانت أزماتي لا تزال قليلة بعد. كانَ يعرف الأحوال، وحدّثني عنك في إحدى المرات، وقال: «يمكن أن تكتبي رسالة، ولن يستغربَ ذلك منك».
وأصرَّ عليَّ أن أكتب؛ لكنني كنت متردّدة لأيام طويلة؛ وقد رأيت قسمًا من كتاباتك، وقرأتها فأعجبتني؛ ثم قررت في نهاية المطاف أن أكتب إليك. كان هناك أثرٌ مُهِمٌّ لأحلامي في قرار الكتابة ذاك.
في الواقع لا أرى كثيرًا من الأحلام، لكنني أفلحت هذه المرة، ولم أحدِّثْ بها أحدًا، يمكنني أن أبوح لك بها. رأيتني في سهل منبسط تمامًا أسير، ولم يكن هنالك نهاية تُرى، أو حدود لذلك السهل. كان الجوُّ غائمًا، وكان الضباب يحجب الأفق، فأتقدم ببطء متلفتة ذات اليمين، وذات الشمال. لكني أبصرت شبحًا أمامي، ربما يكون إنسانًا، فينقذني من وحدتي هذه. تقدمت إليه، فوجدت شخصًا جالسًا يقارب الأربعين. كان يسند ظهره إلى شاهد قبر من مرمر، نظرت إلى القسم الخلفي من الشاهد، وإذا باسمي مكتوب عليه! متى متّ؟ وكيف ذلك؟ ربما ذلك الجالس يعرف؛ فحدّقت فيه مرة أخرى. عجيب! كنت أنظر إلى حالي التي بعد عشرين سنة، كان وجهه شاحبًا، وعيناه حزينتين. ما كنت أصدّق كينونتي، ولا كينونته تلك.
سألته من أنت؟ فأجابني بما يشبه الصَّدَى: من أنتِ؟ ثم بدأ بعدها يتحدث مع نفسه هامسًا متمتمًا. كان عندي فضولٌ لأعرفَ ما يقول.
كان على لسانه دعاء واحد لا يفتأ يكرره باستمرار. «اللهم لا تكلني إلى نفسي! اللهم لا تكلني إلى نفسي». دنوت منه كثيرًا لأسمع ما يقول، فلطمني فجأة على وجهي لطمة شديدة، فصحوت. بدأ لساني يلهج بها، وبدأت أردد الكلمات نفسها من غير نيّة، ولا تخطيط، أو انتباه. لم أحدِّث بذلك أحدًا، وأردت الكتابة، فحسب حتى لا أنسى.
فتحت دفتر ملحوظاتي، فوجدت عنوانك. كان صديقٌ قد نصحني بك كما ذكرت من قبل، فقلت أكتب لك على الأقل. كانت أفكاري مختلطة، ومشوّشة جدًّا، أتذكر اللطمة التي لا يزال ألمها على وجهي، أو ربَّما أنا أتوهّم ذلك، أو أن ذلك نابعٌ من أثرٍ نفسِيّ فِيَّ.
هل أصدّق؟ إنه أمرٌ مريبٌ؛ طريقي مليء بالحواجز، وثمَّة أصواتٌ في دماغي، وبتّ لا أستطيع النوم.
ماذا أنتظر منك؟ لست متأكدة، ربَّما أن تعرفني، أو أن تستمعَ إليَّ، وربَّما أن تفهمني. ربَّما يكون عندي أسئلة، وقد أحتاج معلومات، فقد لا تكفيني المعلومات الهشّة.
لعلك تهبني حفنةَ روحٍ من روحك. ألست أقول: «اللهمَّ»، فهل هناك من يسمعني في الواقع؟ من سيأخذني مني؟ ومَنْ لنْ يتركني لي؟ أين يمضي من تنتهي حياتهم؟ أهناك مكانٌ اسمُهُ «أين»، أم ذلك محضُ خيال أيضًا؟
لا أزال عند الباب في العتبة، لا أقوى على قول كلِّ شيء، لكنني بمرور الوقت سأفعل إن منحتني الفرصة.
ماذا أريد؟ كنت قد قلت «يا ربي»، ومَنْ سمع ندائي الذي يملأ الآفاق، فقد لا يبقى محايدًا غيرَ آبِهٍ، بل ربّما يجعلك قلمًا لي. من يدري! ها هي حالي! هل ثمَّة حاجةٌ لكلمات أكثر؟

لا تتركني، خذ بيديّ.
إن لم أكن معك بجسمي، فأنا معك بروحي، وحبّي، سأكون بجانبك دائمًا ما دمت تريدين ذلك. هل لاحظت أن داخل الدنيا العامة ثمّة دنيا خاصة بكلِّ شخصٍ؟ إنَّ هذه الدنيا هي دفتر في الوقت نفسه، وإنّ حياتك قلمٌ، وإنّك لتكتبين ما تكتبينه بالعيش والمعاناة؛ وإنّك لتملئين دفتر عمرك بما تختارينه من أفعالك.
وهذا الدفتر يصبح كتابًا مع مرور الوقت، وتقادُم العهد، أما جودتُهُ، أو سوؤه، فإنه بيديك أنت، ولسوف يوضع أمامك يوم المحشر، لكننا نعيش في سراب كبير في موضوع العمر؛ فإننا نعيش في لحظة ما، ونمتلكها غير أننا نعتقد أنّ الماضي، والمستقبل لنا أيضًا.
هل تعرفين الانعكاسات التي في مرائي الحلّاقين؟ مرآة في الأمام، وأخرى في الخلف؛ ويعكس المشهد بعضه بعضًا بشكلٍ متداخلٍ. تبدو تلك الغرفة الصغيرة مثل ميدان مترامي الأطراف. والعمر أيضًا هكذا؛ وإننا لنخدعَ حين نظنُّ أن مرآة الماضي، ومرآة المستقبل لنا. هيهاتَ هيهات! إنه خيالٌ ووهمٌ، وسرابٌ.

-2-

ماتت في حيّنا فتاة في مثل عمري، لقد ارتحلتْ فجأة في لحظة لم نكنِ نتوقّعها. معلومٌ أنَّ هناكَ مَنْ يعتقد أن الإنسانَ يكبر، ثمَّ يموت، وكنت أفكر كذلك أيضًا؛ إن كان يقال لذلك تفكير في الأصل. لكن هذا الموت الفجائي هَوَى عليَّ كالمطرقة الثقيلة؛ فكنت أستيقظ فجأة في بعض الليالي، كانت غرفتي مظلمة، أشرع بالتفكير؛ يخطر في بالي موتي، أنهض فأشعل الضوء، ولا أستطيع النوم.

الإنسان يموت، وإنها لنهاية لا مفرَّ منها. المواجهة والاستسلام صعبان للغاية. أحيانًا أواجه الموت لكنَّ ذلك لا يستمرّ طويلًا، وبعد ذلك تبدأ مخاوفي من جديد. حتى إن فكرة مصطلح العدم مؤلمة للغاية. كيف بي إذ لا أكون؟! أحبابي أيضًا سيزولون، ويذهبون. نعم، أريد التصديق! ماذا سأخسر بهذا التصديق؟ لولا هذه المخاوف التي تنخُرُ أعماقي.

كيف يموتُ الإنسان؟ وماذا يرى؟ وإلى أين يذهب؟ بمَنْ سيلتقي؟ لا أنفكّ أفكر بهذه المسائل. إن صورة الموت الذي في مخيّلتي هي كونُه رجلًا يداه منجلان، وعلى رأسه قلنسوة، مشتملًا بعباءة سوداء.

كان يخيّل إليَّ أن الموت يكون كطَوْقِ نجاةٍ في بعض الأحيان؛ لا أعرف إذا ما كنت أريد الموت لو قالوا: «هيّا موتي». عقلي مَشوّش جدًّا. أظنّ أنَّ في إيماني قصورًا، حاولت لمدة طويلة ألّا أفكر بذلك، وصمَمْتُ سمعي عن كلِّ كلام من هذا القبيل. لا أفهم كيف يمكن أن تكون مطمئنًّا إلى ذلك الحَدّ؟ لو أنك تعطيني طريقة ذلك، وتريحني.

على كلِّ حال أقلعت عن مخاوفي، وعليها أن تنتهيَ بعد الآن، ولنتكلّم في موضوعات أخرى. هل قلت إنني مولعةٌ بالقراءة حَدّ الإدمان. إنّني أكتب القصص، والأشعار، والحكايات، والخواطر، والمقالات. هل يمكنك مساعدتي في موضوع الكتابة؟ سأرسل إليك بعضها، وقل لي رأيك بكلِّ صراحةٍ، ولا تفكّر بأنني سأُجْرَحُ، أو أحزن من جرّاء ذلك، وسأكون سعيدًا لو شاركتني تجاربك.

-3-

ليس هناك حادثة، ولا موجود، ولا مفهوم يقول لنا عن نفسه إنّه سلبيٌّ، أو إيجابيّ. إنما هذه أشياء حياديّة، ليست بالمخيفة ولا المُفرحة، وإنّما نحنُ من يحمّلها بالمعاني؛ وتأثيرها عليَّ إنّما يكون بالطريقة التي أفكر بها عنها. فالموت مثلًا هو العدم، أم هو مطيّة للذهاب إلى عالم أجمل؟ المَلَك الذي يقبض الأرواح هل هو ذو يدين كالمنجل يا ترى؟ أهو قاتل فائق السرعة عديم الرحمة يجعل الإنسان يرتجف؟ أم تُراه الرسول الذي يقبض أرواحنا التي هي أغلى ما لدينا، ويصعد بها إلى عالم آخر.

كيفما تؤمنين، وتفكّرين بتلك الأشياء، فإنَّ تأثيرَها عليك يكون كذلك؛ فالإنسان يبقى تحت تأثير الصور التي عسكها في مرآته الخاصة. جميع الأشياء التي في الكون، وجميع العلامات، والصور تتّخذ شكلها، وتبدو بحسب مرآة روحك أنت. ثمَّة في الواقع حقائق لتلك الأشياء، إنها عبارة عن تجلّي الأسماء الإلهيّة، لكنّ هناك أشخاصًا مغرورين لا يُقِرّون بذلك، ويظنون أن عقولهم كافية، فلا يرونها.

يمكن تقسيم بني البشر إلى قسمين من حيث وجهات نظرهم المتعلّقة بموضوع الموت، وأفكارهم عنه، ومواقفهم منه، وتصرّفاتهم تِجاهه. فالموت بحسب الفريق الأول، هو انعدام لمعان نور الحياة تمهيدًا لانطفائه، هو انتهاء العمر، افتراق الأحباب، الولوج تحت التراب الأسود، الزوال، وكذلك تعرّض الأحباب للمصير المروّع نفسه. وهؤلاء يريدون أن يعيشوا دون التفكير في الموت، ولا حتى يحتملون الخوض في مسائله. يعيشون في خوف وهواجس، ويتصرفون كالنعام حين يرى الصياد، فيدفن رأسه في الرمال. وبالرغم من أنهم لا يريدون التفكير بالموت إلّا أنهم يدركون تلك الحقيقة المُرَّة التي تنتظرهم. إنهم مثل الأفعى، إذ إن فكرة الموت تتربّص بهم لا تفارق أذهانهم.

وأما الفريق الثاني، فنظرتهم نظرة إنسان مؤمن؛ يعرفون حكمة الخلق، ويعتقدون أن الموت ليس النهاية بالنسبة للمؤمنين، ولا أنه طريق لا نهاية له، بل الموت هو البداية، وهو بوابة لعالم جميل، وسياحة من زنازين الدنيا إلى جِنَان الآخرة، وهو الوسيلة لِلِقاء الأحِبَّة الذين ارتحلوا من قبل، ونجاة الروح من قفصِ الجلد، ومدخل لكتاب الحياة الأبدية. من يعرفون أن القبر هو مدخل مدينة الأنوار، ويفكرون بناء على تلك المعرفة لا يهابون الموت على الأطلاق؛ بل إنهم يشتاقون إلى الموت وفق درجاتِ إيمانهم، ويرون الموت خلاصًا لهم من زنازين هذه الدنيا. دعيني أعْطِكِ مثالًا متعلّقًا بمواجهة حقيقة الموت؛ لو أردنا التعبير عنه بأسلوب تقليديّ لقلنا هذا المثال: ثمَّة مخلوقٌ ما في إحدى غرف بيتك، وأنتِ تعرفين أنه هناك دائمًا، أمّا مَنْ يكون؟ وما ماهيّته؟ وكيف هو؟ فهذا ما لا تعرفينه.

إنّك تخشين مواجهته، وتبقين مذعورة تداخلك الرهبة ليل نهار؛ لأنه يمكن أن يخرج فجأة، وفي أيَّة لحظة. لكنه في الأصل جيّد، ولو عرفتِهِ وقابلتِهِ لذهب عنك الخوف، ولاستمتعت بحياتك. والموت مثل ذلك أيضًا، وأنك لتعرفين تمامًا أنه آتٍ لا محالَةَ في يومٍ من الأيام، وإنك لتسْعَيْنَ إليه في حياتك خطوة خطوة. إنه دائمًا مَعك! لكنك لم تواجهيه، ولستِ تعرفين أنه وسيلة جيدة؛ ولذلك تظلين خائفة.

لو عدنا إلى موضوع مهنة الكتابة، فإنّك استطعت التعبير بشكل جميلٍ عن خوفك، وأفكارك عن الموت، ومشاعرك تِجاهه. فإذا كانت كتاباتكِ الأخرى هكذا أيضًا، فإنّك في الطريق الصحيح، فإذا وجدت الفرصة المواتية قرأتها أيضًا، وقلت لك رأيي فيها، لكن عليك أن تستعجلي في الكتابة؛ اكتبي وأرسلي إليَّ، لكنْ لا تنتظري مني الإجابة فورًا، فإنني فقيرُ وقتٍ بكلِّ ما تعنيه الكلمة.

-4-

أشعر أنني مسافرة، وإنه لسفر لا يمكن إيقافه، غير أنني أريد أن أعرف ماذا سأواجه في هذا السفر.
إذا كان فيّ شيء آخر غير جسدي فإلى أين سيمضي؟ وإن كان ثمة بعثٌ فكيف سيكون؟ هل هنالك شرحٌ يواتي العقل حول هذه الأمور؟
إن أركان الإيمان كافة ترتكز على التوحيد، وتأخذ منه النور والقوة؛ وإن الأساس الآخر للإيمان يقول: «هناك إلهٌ، وإنه واحدٌ، يعلم كلّ شيءٍ، يشاء ويقدر على كلّ شيءٍ». الملائكةُ عبادُهُ البرآءُ المخلصون، والآخرة داره، والقدر علمه، والكتب كلامه، والأنبياء رسله.
إذا لم يُعرف الله حقَّ المعرفة، فإن أركان الإيمان لا تفهم بشكل كافٍ، كذلك لا ينجو الإنسان من الشكوك. ولا ريبَ أن هناك حقيقةً للحشر، والبعث من بعد الموت وللحياة الخالدة أيضًا. ولا بُدَّ أنكِ ستعجزين، ولن تصلي إلى نتيجة حين تفكّرين بتقييم مرحلة البعث بعد الموت من منظورك، وبناء على معلوماتك وقدرتك. إن الله العلّام ذا المشيئة اللّامتناهية، والقوة المطلقة سيحييك، وجميع بني البشر؛ وستتكلم في الماهيّة والكيفية فيما بعد.
دعيني أتحدثْ أوّلًا عن المحطة الأولى من محطات طريق الخلود ألا وهي المزار. إن الناس يخلطون بين القبر والمزار، وإنهما شيئان مختلفان قطعًا؛ فالمزار هو مكان الزيارة، وبعض الأجساد تُدْفن في المزار بشكلٍ يوائمُ الأصول والأعراف، وهناك تتفسّخ، وتصبح ترابًا رميمًا. وبعض الأجساد تُحْرَقُ وتصير رمادًا، وبعضها تُرمى في البحر، وهذان الأخيران يحرمان حتى من ترك عنوان للزيارة.
أما الموت، فإنه فراقُ الروح للجسد، والروح تنجو من سجن الجسد بهذا الموت، وإن الروح لا تبقى عاريةً تمامًا بعد فراقها الجسد، بل لها جسد لطيف رقيق لا تراه العين، وبهذا الجسد يُصعد بها إلى العالم الجديد. إن الروح المرتبطة بالجسد مدّة بقائها في الدنيا لتجد قسطًا من الحرية؛ بسبب الموت. وإن الروح المحبوسة في الجسد، والمرهونة بالعين لتبصر، والأذن لتسمع، والعقل لتفكر. سترى وتسمع، وتعلم لاحقًا دون الحاجة إلى تلك الأعضاء. وهذا سفر من عالم الشهادة في الدنيا إلى عالم الغيب في القبر.

-5-

لي أصدقاءُ أجالسهم، ونتحدث في مسائل مهمَّة مثل قدري، وجولاي وفوسون وغيرهم، كما أن عندي مجموعة من المجانين الذين اتَّخذوا من التسلية عملًا، ولم أحدثك من قبل عنهم. هنا يتجلَّى وجهي الآخر، وربّما عليَّ أن أقول وجهي المظلم. ذاتِ يوم ألحُّوا على أن نقضِيَ أسبوعًا في مكان بعيد عن المدينة، وكانت هذه الفكرة حاضرةً منذ ستة أشهر، وفي نهاية المطاف اتّخذنا قرارنا النهائي بالسفر؛ وأخذت معي قلمًا، ودفترًا ونحو ذلك؛ إذ كنت أرغب في كتابة انطباعاتي.

لن يكون هناك حاسوبٌ، ولا شبكة إنترنت، كنّا نريد أن نعيش حياة بدائيّة. إنني أكتب هذه الأشياء؛ لأقنع نفسي في الأصل، ولأريح ضميري؛ فلست مطمئنّة، وثمة صوتٌ في داخلي يتكلّم باستمرار ويقول لي: «إنّك تتأرجحين، كوني وفيَّةً لقراراتك».

ما كنت قادرة على إسكات ذلك الصوت. وكان هناك صوتٌ آخرُ في داخلي يقول عكس هذا بالضبط؛ فما كدت أقرر الحياة المناسبة لسبب وجودي وإيماني حتى تعكّر صفوي.

كان الصوت يقول: «لسنا نعيش في الماضي، إننا في عصر حديث، وأنت تشغلين بالك بموضوعاتٍ عميقةٍ عبثًا. انظر إلى حياتك. كلُّ الناس يفعلون هكذا، فينتفعون بنعم الدنيا، ويرتّوون منها. الناس مهووسون بتحقيق حياة أفضل، يعملون فيكسبون النقود، ويتلذّذون بطعم الحياة. افعلي مثلهم أيضًا، سيحدث لك ما يحدث لهم؛ فالمصيبة حين تنزل بالجميع تكون أسهلَ من أن تنزل بالفرد.».

الإنسان كلمةٌ محكومةٌ بالمسح والذهاب من على وجه الأرض، فقد جاء خلق كثيرون، عاشوا قليلًا، أو كثيرًا لكنهم مَضَوْا. شاؤوا أم أَبَوْا، حتى إن أسماءهم لم تعد تُذكر.
نحن ضيوفٌ مسافرون نمضي في طريق طويل، وأمامنا الأمراض، فالشيخوخة، فالموت. وبعد القبر ينتظرنا المحشر، والحساب، والجنة والنار. ومهما نكن قد تقدمنا في العلم، والتقنية، والحضارة، فنحن عاجزون أيضًا، وفقراء كذلك.
لم ينته الطريق بعدُ، إنه السفر المستمر، وإن نسينا الموت، فإنه متربّصٌ بنا لا ينسانا. المَلَكُ المُوَكّل بنا يعدّ الأيام. لا يُغلَق باب القبر. والقول إنَّ المصيبة حين تنزل بالجماعة لن يجدي نفعًا هناك.
يخدعنا الشيطان، ويغرّ الإنسان، ويوهمه بأنّه لن يموت، وهكذا يجعل الإنسان يحرص على الجري خلف هواه.
نحن بشرٌ وحيدون، كلٌّ مِنَّا يأتي إلى الدنيا منفردًا، ويرحل عنها كذلك، ويحاسب في القبر منفردًا أيضًا. وسيأتي اليوم الذي لا يستطيع فيه أحدٌ مساعدة أحد، وسيُشْغَلُ كُلُّ إنسان بهمّ نفسه. كيف ننسى هذه الحقائق؟! هناك من خلقنا، وزيَّن لنا السماء والأرض، وسخّر الموجودات كافّة لخدمتنا، ونحن مكلّفون تجاه ذلك الخالق.
كلُّ شيءٍ بأمره، فكيف لنا أن نكون مُنْزوين عنه! إن عشنا عاصين له، فربَّما نستمتع قليلًا لكنّ عاقبتنا ستبوء بالخسران. إننا نفقد الطمأنينة حتى في هذه الدنيا، ونشعر أننا تُركنا وحيدين، وإذا كانت أجسادنا تستمتع، فإن أرواحنا تحترق؛ فلو دخلنا في حمايته بالإيمان، وامتنعنا مع ذلك عن بعض اللّذّات اكتسبنا السعادة. كما أن المتع المباحة تكفي الإنسان، ولا ضرورة أبدًا للدخول في المُحرّمات. وكذلك لا حاجة إلى تخريب دنيانا من أجل إعمار آخرتنا. لا بُدّ أن يكون لك رغبات وتمنّيات وآمال، ولا بُدّ من أنك تريدين الرفعة، والتقدم، والنجاح. من حقّك ككلّ البشر أن تحيي حياةً كريمة ويكون لك أعمالٌ جيّدة. يكفي ألّا تضيّعي روحك، ولا تُقبلي على الدنيا ناسيةً سبب وجودك فيها، ولا تتجاوزي الحَدّ، وتدخلي إلى المناطق الممنوعة.
أنجزي ما يتطلّبه إيمانك، فيعدّ حينذاك أنّ كل ما أنجزته من أعمال مباحة عبادة.
أصغي إلى الأصوات القادمة من أعماقك، وحاولي أن تتعرّفيها؛ إنها أصوات نفسك. نفسك التي تأخذ دروسها عن الشيطان، نفسك التي لا تعرف ماهيّة الحَدّ، نفسك التي تشبه النعامة حين تريد ألّا ترى الصيادين، فتدفن رأسها في الرمال، نفسك التي لا تريد أن تتذكّر الموت، نفسك التي تلهث خلف هواها. إنها تغترّ بنفسها، وتبحث عن طرق لخداعك أيضًا، فإنك إن لم تملئي قلبك بأنوار المعرفة ملأه شياطين الإنس، والجان بظلمات الوسوسة. والشياطين الموسوسون بالآلاف، وأكثرهم خداعًا شياطين الإنس.
الناس ألوان شتّى؛ بعضهم نورٌ يضيء، وبعضهم نسيم يشرح الصدر، وبعضهم ماء ينعش، وبعضهم غذاء يُقيت، وبعضهم علاج ضروري أحيانًا. وبعضهم جراثيم تمرض، وبعضهم سُمٌّ يقتل. يجب أن تكوني حذرة؛ فالشخص الذي تدعينه أخي، وصديقي قد يودي بك في هاوية مُهلكة. راقبي نفسك باستمرار، وأبصري أخطاءك، تكلمي مع نفسك وقولي لها: «زللتِ واغترت، وتريدين خداعي أيضًا. إنك تدعينني إلى طريق في آخره

جَرْفٌ شاهقٌ. نعم، تغيّرتِ العصورُ، واختلفت الأزمنة لكنّ الموت لا يزال متربّصًا في مكانه، والقبر ينتظرني، ولست خالدة في هذه الدنيا، فإن كان لديكِ حلّ لقضيَّتي فتكلّمي، وإلّا فاسكتي!».

-7-

حسنًا، إنني أحاول تخيُّل موتي، لكنّ أسئلة كثيرة تُباغت ذهني حينها. عندي فضول، وأريد أن أعرف، فالمعلومات السطحِيّة لا تكفيني بالمرّة. لو تحدّثتا قليلًا في هذه الأشياء؛ معنى الحياة، كنْهُ الموت وسرُّه، فراق الروح للجسد. ما يحدث للروح بعدها. الانتظار في مكان آخرَ. تفسُّخُ جسدي، واستحالته ترابًا.

هيَّا نركب فرسَ خيالٍ، وننطلق به حتى نأتي ضفّة نهر، ونراقب جريان الماء. انظري، ثمَّة فقّاعات تتكوّن على سطح الماء، إنها تظهر لبرهة، وتلمَع، ثم تتلاشى، ولسان حالها يقول لنا: «لا ضوءَ عندي، ولا ألمع من ذات نفسي، الضوء يأتي من الشمس، فأنا بلمعاني إنما أدلّ على الشمس. وبعد أن أختفي ستظهر فقّاعات جديدة ستلمع، ثم تختفي مثلي. وهذا يبرهن لنا أننا مؤقّتون، وأن الشمس باقية، فإذا أردت أن تجد مصدر الضوء وتعرفه، فارفع رأسك، وانظر إلى الشمس.».

إنَّ الزمان كذلك نهرٌ جارٍ، والكائنات منذ بدء الخلق تجري، وتذهب. وحَيَواتُنا فقاعات لنهر الزمان. نور الحياةً يلمع لمدة قصيرة في الوجوه، ثم يأتي الموت، ويأخذ مكان الحياة. ولا ريبَ في أنّ ثمّة شمسًا أزليّة تهَب نور الحياة لتلك الوجوه، ولمعانها برهان على ذلك. وانطفاؤها، وحلولُ قادمين آخرين مكانها علامةٌ على استمرار مصدر الحياة.

ندرك من ذلك أن جميع الحَيَوَاتِ فانية، وأن الذي يمنح الحياة باق، إنّ اسمَي ربّنا: «المُحْيي والمُمِيت» يتجلّيان على الدوام. واسم «المُحْيي» الذي يهب الحياةَ دون توقّف، وأما المُمِيت، فهو الذي يخلق الموت باستمرار. نعم، الموت مخلوق أيضًا، وليس حادثة تولد بالمصادفة، فالله الذي يهبُ الحياة يقبضها حين يأتي أجلها. لكلّ كائنٍ عمرٌ محدَّدٌ، والله الذي لا حدود لعلمه يعلم أجل كلّ كائنٍ منها، فليس هناك من حيٍّ يُنسى، ولو لم يأتِ أجله. وهذا أيضًا علامة أخرى على أن الموت ليس مصادفة تقع. وكما أنه ليس هناك أيّ مخلوق يمتلك الحياة من تلقاء نفسه، فإنّه لا يموت من تلقاء نفسه أيضًا.

لو درست بدقة موت البذرة لرأيت سلسلة غاية في العجب من تعقّبٍ بعضها بعضًا. يعد موت البذرة بداية حياة للنبات، وكذلك فالإنسان يموت هنا تمهيدًا لانتقاله إلى حياة جديدة في عالم الخُلْد. يتفسّخ جسده، ويتحلّل في التراب، لكنَّ روحه تنتقل إلى عالم القبر، وتنتظر القيامة هناك. تقوم القيامة وتحيا الأرواح يوم المحشر، وتعود إلى أبدانها التي خُلِقَتْ من جديد.

نعم، آمَنَّا وصدّقنا! إن القدرة التي تهب الحياة في الربيع لأموات الشتاء لا بُدّ أن تُحيي الأمواتَ الراقدين في قبورهم يومًا ما!

أحببت مثال النهر.حسنًا، كيف يأتي الموت؟ إلى أين تذهب الروح التي فارقتني؟ ثم ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل يمكنك أن تشرح لي ذلك خطوة خطوة؟!
لا نستطيع أن نجدَ معلوماتٍ موثّقة عن هذه الموضوعات التي لا تدخل مجال الحواسّ إلّا من القرآن الكريم، والحديث الشريف. وسأشرح هنا باختصار ما رأيته في هذين المصدرين.
تقبض روح الإنسان الذي جاء أجله بواسطة «عزرائيل عليه السلام»، ثم تُؤخذ إلى عالم البرزخ، والبرزخ هو مكان انتظارٍ بين الدنيا والآخرة، وهناك تُوقَف الروح وتُسأل، ويُقال لذلك: «سؤال القبر». والبرزخ أوَ حياة القبر تأخذ شكلها بِناء على نتائج هذا التحقيق، وهذا يكون إمَّا جيّدًا، وإمّا سيّئًا للروح.
وكيف هي حياة القبر؟ نرى ذلك في الحديث النبوي، إذ بيّن ذلك نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بقوله: «إِمَّا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَإِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ».
الإنسانُ عابرُ سبيلٍ في طريقَه من هنا إلى القبر، ومن القبر إلى المَحْشَر، ومن المَحْشَر إمَّا إلى الجنة، وإمَّا إلى النار.
ثمّة أحاديثُ مدهشةٌ سيعقب بعضها بعضًا في طريق الحياة الخالدة، وسأشرحها باختصار: سيبدأ يوم القيامة بنفخةِ أحدِ الملائكة الكبار المَدْعُوّ «إسرافيل» عليه السلام ببوقٍ مجهول الماهيّة يسمّى «الصُّور».
تُصْعَقُ الكائناتُ، وتُجهَّز أرض المَحْشَر، وتُخلق الأجساد، وتوهب حياةً مناسبة لعالم الخلود. وتُرْسَل الأرواح التي تنتظر في عالم البرزخ إلى الأجساد الجديدة، ويُسَاقُ كلُّ إنسانٍ بين مَلَكَيْنِ إلى أرض المَحْشَر تمهيدًا لحسابه.
يُجْمَعُ هنالك البشر كافّة في صعيدٍ واحدٍ، ويُقال لهذه المرحلة «الحَشْر».
توزن الأعمال في الميزان، فتُعرف بها الجنة والنار، ويُرسل كلّ إنسان إلى المكان الذي يليق به، ويقال لهذا «النَّشْر».
إن الدنيا هي دارُ امتحان، وإنها ستذوق الموت مثل كلّ نفس، وستكون منزلًا في عالم الآخرة الخالد.
يُجْمِع على ذلك القرآن، وجميع الكتب السماوية التي أُنْزِلَتْ من قبل، وآلاف الأنبياء، ومليارات الأولياء يركّزون على هذه النقطة، ويُدَندنون حولها.
لقد وعد الله عباده بذلك بلسان كتبه وأنبيائه، ولا ريب أنه سيُنجز ما وعد؛ وهو عزّ وجلّ مُنَزّهٌ عن النسيان، ويستحيل أن يُخلفَ وعده.
ليس هنالك ما يمنع الحشر والبعث، بل إن هناك أسبابا كثيرة توجب الآخرة، ولا سيَّما الأسماء الإلهيّة، فهناك اسمُ الحكيم في معنى الذي يفعل كلَّ شيءٍ بحكمة، فلو لم يكن هنالك حياة أبدِيّة لما كان هنالك معنًى للكائنات، ولكانت الحِكَمُ التي تظهر في كلّ مكان عَبَثًا.
ليس في الكائنات إسرافٌ قطّ، فكلّ كائنٍ مُسَخّر لمقصد ما، فلو لم يكن للحياة الدنيا نتيجة أبدية، لكانت الكائنات كلّها إسرافًا في إسراف.

ولا مِرَاءَ، ولا شُبْهَة قطّ في أنَّ الله الحكيم لا يمكن أن يفسح مجالًا لمثل هذا الإسراف، والعبثِيّة تلك.
واسم الرحيم مثلًا. لولا قيام المَحْشَر، والحساب لكان خلاف الرحمة؛ فغمْس الإنسان في لذّة الحياة لبُرهة، ثم إهلاكه يؤدي إلى ظهور القسوة، لا الرحمة، وصاحب الرحمة التي وَسِعتْ كلّ شيءٍ لن يُفْضِيَ إلى قسوة كهذه.
واسم العادل مثلًا. وشأن هذا الاسم إعطاءُ كلّ ذي حقّ حقّه، فربّنا الذي يرينا عدله في هذه الدنيا، فيعطي لكلّ روح جسدًا ملائمًا، ويعطي لكلّ جسد أعضاء مناسبة لا بُدَّ أن يعطيَ لكلّ إنسانٍ نتيجةَ بحسب عمله، فللمظلوم ثوابُهُ، وللظالِمِ عقابُهُ.
فهذه الأسماء الثلاثة، ومثلها سائر الأسماء الإلهية من مُوجبات الآخرة، ولسوف نتحدث عنها بالتفصيل لاحقًا.

-9-

شرحوا في درس الأدب قول يونس أمره: «أنا عندي أنا» بمَنْ يفكر الصوفيون؟ قالوا شيئًا من قَبيل: «هدم جدار الأنا»، فما معنى ذلك؟
«أنا عندي أنا» يعني الأسماء الإلهية المتجلّية الظاهرة المرئية في نفسه، ولذلك يومئُ إلى صاحب تلك الأسماء.
والمتحدثون عن «هدم جدار الأنا» يعنون بها: «أقوالي لمَنْ خلقني، وإنّي أتخلّى عن قضية الملكية، وأسلِّم كلّ أشيائي إلى صاحبها الحقيقيّ.».
بفضل وعي الأنا عند الإنسان، فإنه يرسم لنفسه حدودَ «أنا» ما قائلًا: «هنا لي، والآخر لربي»، ثم ينظر بعد ذلك، فيرى أن «أقوالي» ليست له، ولم يفعلها بنفسه، ولم يخلقها، فالواهب غيره، وعندما يستوعبها يقول: «أنا أيضًا له، وأقوالي كذلك له»، ويسلّم ما في يديه إلى صاحبها الحقيقي، ثم يفهم أن «أناه» مجرد خيال، ووهم وشبح، ثم يتخلّى عن قضية الأنا.
معلوم أن الإنسان حين يجد عملًا جديدًا كأن يصبح موظفًا في قطاع الدولة، فإنهم يعطونه طاولة، ثم يبدأ بالقول كلما جاء إلى عمله: «غرفتي، طاولتي، حاسوبي.»، لكنّه يعلم في قرارة نفسه أنّ تلك الأشياء ليست له في الواقع؛ فلا يمكنه أن يبيعها، أو أن يستعملها في بيته، أو أن يهبَها لأحدهم. وكذلك فالروح الموهوبة للإنسان، والجسد، والعقل، والعينان، والأذنان، وغيرها من الأعضاء هكذا، فيجب على الإنسان أن يستعمل هذه النعم بما يناسب أمْرَ الواهِب.
تصوَّري لو أن موظفًا ظنّ أنّ ما استلمه مِلْكٌ لنفسه، فذهب وباعه! سوف يُتّهم بالسرقة، ويُحكم عليه، ويُعاقب. وكذلك هي حال الإنسان الذي يظنُّ أنّ الأعضاء التي وُهِبَها بوصفها أمانة، إنّما هي مِلْكُهُ، فيستعملها كيفما اشتهت نفسه.
إنك عبارة عن تجلّي الأسماء الإلهيّة، وما كان لكَ من شيءٍ من الملك فإنّه لربّك. هو الذي وهبك الحياة، وهو الذي يسوق إليك الرزق، وهو الذي يمنّ عليك بالشفاء حين تمرضين.
إنك مرآةٌ، وما عندك من أشياء فهي صور، وكما أنّ الصور التي تبدو في المرآة ليست لها، فإنّ ما عندك ليس لك.
قديمًا قال أحد الحكماء: «الإنسانُ قطرةُ دمٍ واحدةٍ، وألفُ هاجِسٍ». إن هذا الامتحان سيُعاشُ ما امتدّ العُمْرُ، وتكمنُ أهمّيَّة الإنسانِ هنا أصلًا. إن بَحث الإنسان عن ذاته، وإيجاده إيّاها، ومعرفته بها، وبالتالي معرفته بربِّهِ هو امتحانه، وجهاده الأكبر في مواجهته الرغبات السلبية لنفسه.
إنّ الطرفَ الآخر من إشارة «يساوي» في معادلة الدنيا، والآخرة يأخذ شكله بأعمالنا التي في هذا الطرف، فإذا كانتِ الأرقامُ قد كُتِبَتْ في شمال المعادلة، فهذا يعني أنه ستُكتب بالضرورة أرقامٌ مناسبةٌ في الطرف الآخر.

-10-

أتحدَّث عن نفسي دائمًا، لا بُدّ من أنّك مللت من ذلك. ماذا تفعل أنت في هذه الأوقات؟ كيف تمضي حياتك؟ هل تكتب شيئًا؟
كما ترى، فإنني أحدّثك بكلّ ما مرَّ على رأسي، وبكل ما خطر في بالي. اعتنِ بنفسك جيّدًا. أأنت مضطرٌّ أن تكون كتومًا إلى هذه الدرجة؟!
كنت قد أرسلت إليك كتاباتي، وما أجبتني! وقد تعبت من الانتظار! قرأتها أم؟ أظنّك نسيتني.
هل من الضروري أن أتوسَّلَ إليك لتكتبَ؟ دعْني أشاركك مشاهداتي. انتبهت إلى أن الناس لا يصغي بعضهم إلى بعض حتى النهاية، وقد كنت شاهدةً أمس على إحدى هذه الحوادث؛ فمن حين لآخر نجتمع بالأصدقاء القدماء، فنقضي شيئًا من لُبانَتِنَا، وأحيانًا نملأ الوقت بأحاديث معتادة، وأحيانًا أخرى نغوص في مسائلَ مهمّة.
كنّا نتحدث في مسائل الأخلاق، لكن جولاي لم تجد فرصة سانحة لتعبّر عن رأيها وأفكارها. قال متين مقاطعًا: «لا أتفق معكِ»، ثم بدأ يشرح ما قرأه في كتاب ما.
غضبت جولاي من مقاطعته لها قائلة: «قبل كلّ شيءٍ تعلّم الإنْصَاتَ!» فكَبُرَتِ المناقشة، وقال بعضهم لبعض كلماتٍ جارحةً، ما كان لها من داعٍ في اعتقادي.
فكّرت وإذا بي أنا أيضًا أفعل مثل هذا الخطأ، فلا أستمع إلى مَنْ يخاطبني حتى ينتهيَ من كلامه. كما أن المناقشات ينبغي أن يكون لها آدابٌ كذلك. تجاربك قد تكون مفيدةً لي.
سأتحدث عن نفسي في وقتٍ مناسب، عليَّ أن أعيش أوَّلًا حوادثَ تلفت نظرك، لكنني لا أستطيع أن أخترعَ من عقليَ! قرأت كتاباتك، وإذا وجدت فرصة مواتية أخبرتك برأيي، فانتظري قليلًا.
بالنسبة لموضوع المناقشة التي حدثت. نعم، هنالك آداب للمناقشة؛ أولها الإصغاء إلى المخاطِب، وفهمه.
كلُّ إنسانٍ يقول كلامه مؤمنًا بأنه يفكر بشكلٍ صائب، وبشكلٍ عام يكون هناك في كلامه أقسام صحيحة من وجهة نظره. أصْغِي بدقّةٍ أوّلًا وأفهمي، ثم بيّني الأقسام الصحيحة في كلامه، ثم قولي مثلًا: «هناك هذا الاتجاه في هذه المسألة أيضًا»، وبيّني رأيك، ووجهة نظرك. وهكذا يكون التأثيرُ أبْلَغَ، فلو بيّنت المسائل التي لم يَرَها هو في الموضوع بلغة مناسبة، فلربّما يقبل ما قلته.
استميلي مخاطِبك إلى جانبك حين يكون في بداية كلامه، ولا تنزليه منزلة المنافس الذي يواجهك. واشرحي رأيك دون أن تدخلي في الصراع معه، ودون أن تجرحي شعوره بالأنا، ودون أن تصفعي وجهه بجهالته. ولا يكن إيضاحك لرأيك كأنه طعنٌ في أفكاره، أو تَحَدٍّ لها؛ وهذه هي المقاربة الإيجابية البنّاءة.
الناس يتّخذون مواقفَ إيجابيّةً، أو سلبيّة، ويُنتهج في المواقف السلبية التّخطئة، والرفض، والهجمات المضادّة، والسلبيّة، والتهميش، والتجريح، ويكون هناك نوعٌ من الصراع، والهجوم على منْ لا يفكّر مثلنا باستمرار. أما في المواقف الإيجابية، فيتميز الأمر بشرح الأفكار الذاتية، والوصول إلى الصّواب. إنّ التعبير عن الأفكار، وشرحها، والتدليل عليها دون إيقاظ العداوة، ودون الإغضاب، أو إثارة الأعصاب، ومن غير استفزاز هو

سلوكٌ إيجابيٌّ. وإنّ القول: «لا شمعةَ تلعنُ الظّلامَ» تعبيرٌ موجزٌ عن هذا السلوك، وإنّ عدمَ الانشغالِ بالأشخاص، ومقاساتهم عنصرٌ مُهِمٌّ للحركة الإيجابية.
الأفكار هي ما يجب أن يُؤخَذَ بعين الاعتبار، ليسَ بغاية رفض الكذب، أو الخطأ، بل يجب بذل الجهود من أجلِ إثبات الحقائق.
دعيني أسألك سؤالًا؛ لأنّه لا يجيب عليه إلّا فتاة ذكيّة مثلك: إنّني أمَلّ أحيانًا وأنا أتكلّم مع السيّدات! فهنّ ينشغلن جِدًّا بالتفاصيل، ويُسهِبْنَ في الكلام ما شاء لهنّ الإسهاب! لماذا هنّ هكذا؟!

-11-

لأنهنَّ دقيقاتٌ، والتفاصيل مهمَّة عند النساء، ويفكرنَ بأنهنّ لم يستطعن التعبير عن أنفسهنّ قدرَ الكفاية إذا لم يشرحن بالتفصيل. وهذا مُهِمّ إلى درجة أنهن يُنَحّينَ أحيانًا المسائلَ الكبيرةَ جانبًا، وينشغلن بتفصيلٍ صغير جدًّا، كمن ينشغل بأذنِ الجَمَلِ عن الجَمَلِ؛ لذلك يكون كلامهن مُسهبًا على الدوام، وعلى ذلك يَمَلّ الرجال، وهم يستمعون إليهنّ؛ وحتى لا يُحزنوهن يشعرون بأنهم مضطرُّون للإصغاء إليهنّ. وها أنت ذا تقول الأشياء نفسها عنهن، لكنَّ الإصغاء إليهنّ ضروري، والنساء يحببن الرجل الذي يصغي إليهن، فإذا استمعت إليهن، فأنت «رجلٌ متفهّمٌ»، وحين تأتي سيرتك ويتحدّثن عنك، فإنّهن يقلن: «إنّه رجل يفهم، دَمِثُ ولَبِقٌ ومحترمٌ، ونحو ذلك».

هذه هي المرأة! والرجل الذي لا يفهم ذلك لا يسيرنّ بين الناس قائلًا: أفهم النساء. ستستمع إليهن وتستمع. تستمع فقط، ولا داعي أن تقول شيئًا، ولا حاجة لأن تفعل شيئًا في معظم الحالات، يكفي أن تجعلها تفكّر بأنّك تُصغي إليها.

هكذا يا ترى؟ لا أعرف بالضبط. ليت فهم النساء كان بسيطًا بهذا الشكل! هل يمكن القول إن المرأة مثل قولهم: «اثنان ضرب اثنين يساوي أربعة»؟ عندما تكون النساء موضوع النقاش، فإنَّ اثنين في اثنين قد لا تساوي أربعة!

إن الرجال الذين يعتقدون أنهم قد فهموا النساء هم أبعد ما يكونون عن فهم النساء! أعرف ذلك من أمي؛ فالمرأة التي تعاني فراغًا عاطفيًّا تبقى تعيسة ولو ملكت ثروة طائلة، أما النساء التعيسات، فإنهنّ يُتعِسن الناس، إنهنّ خطراتٌ، ويشكّلن خطرًا كبيرًا على مَنْ حولهنّ، فعلى الرجال الذين ينشدون السعادة أن يسعدن النساء أوّلًا.

على كلّ حال. أسهبت في الحديث، ولكنني لست خبيرةً، أو مختصّةً في شؤون النساء في الأصل، وقد أخطئ. وما هذه إلّا انطباعاتي الشخصيّة ومشاهداتي، وربّما هي واحدة من أوهام النساء أيضًا، فضلًا عن ذلك، فأنا لم أصبح امرأة بكلّ معنى الكلمة، فليس من صلاحياتي أن أشرح، وأبيّن.

أقول عليَّ أن أنأى بنفسي عن إطلاق الأحكام، لكنّني لا أفلح في ذلك، وأحيانًا أبذل كلّ ما في طاقتي لذلك.

إنّ إطلاق أحكام قطعية يُشعر الإنسان بالقوة.

إنّني أطيل الكلام أحيانًا، وإنّك لصبورٌ بمقدار تحمّلك لي.

أفّ! مرة أخرى سقت الكلام على نفسي! كأنّنا كنا ستتحدث عنك قليلًا! بالمناسبة، هل تجادل أحيانًا؟ لديك روح عاطفية، ولا يمكن أن تسكت، أو تكون عديم الإحساس إزاء الأخطاء. يصعب على إنسان عَرَكَتْه التجارب جِدًّا ألّا يبين رأيه، وهذا أيضًا يجلب معه الجدال.

-12-

أحاول ألّا أدخل في جدال، وأحيانًا ألوذُ بالصمت، وأحيانًا أقوم بتغيير الموضوع.
أبتعد عن كلّ حوارٍ يفتقد إلى المعايير والأصول. أشارك في تبادل الأفكار، ولكنني أتحاشى كلَّ جدالٍ يستند إلى العِناد.
لا أتجادل أبدًا مع من لا علمَ عنده بآداب الجدال والحوار، ذلك أنني خبرت الحياة بما فيه الكفاية، وهي التي أوصلتني إلى هذه النتيجة، وأحاول أن أستمع إلى مخاطبي، وأفهمه بكل صبرٍ ودقّة.
أفكر في بداية الحديث بأن مخاطبي: «يريد أن يقولَ هذا «، مثلًا، ولكن مع تقدم الحديث أكتشف أنني قد وقعت في خطأ، وأن مخاطبي يريد أن يقول غير الذي فكرت فيه في بداية الحديث.
قلت في نفسي: «جميل جدًّا؛ لأنك لم تستعجل في الرّد عليه». هذه حقيقة بسيطة. وربما تُنسَى لهذا السبب، وأما الآن، فإنني أفسح المجال أمام مخاطبي، وأمنحه وقتًا كافيًا حتى يوضّحَ لي ما يقصد، وأساعده حتى يشرح لي أفكاره من دون أيّ نقصان.
أنتبه إلى التفاصيل الدقيقة في كلامه. وحين يحصل لبسٌ، وغموضٌ في الموضوع، فإنني أطرح عليه أسئلة حتى يُرفعَ ذلك اللَّبْسَ، والغموض.
وأما أسلوبي بهذا الشكل مع مخاطبي، فإنه أوّلًا يجعله ممتَنًّا مني، وثانيًا يجعله يشعر بالطمأنينة. وبهذا الأسلوب أكون قد احترمته وهو يتحدث، وبالمقابل هو الآخر يحترمني أيضًا حينما أطرح عليه أسئلة حول ما حصل من غموض في حديثه.
من أجل أن يُقطر الجرح بالدواء، ومن أجل أن يوضع الحجر في الثغرة حتى يغلقها ينبغي قبل كلّ شيء معرفة مكان الجرح، ومكان الثغرة وخصائصهما، وحجمهما، والفروقات بين هذا الجرح، والجراحات الأخرى، بين هذه الثغرة، والثغرات الأخرى.
هذا وإن الأمر لا ينتهي ههنا بهذا الشكل، بل يجب البحث أيضًا عن أنسب علاج لذلك الجرح، وأنسب حجر لتلك الثغرة.
وبعد هذه المرحلة، سيسهل تحديد اللغة المناسبة، والأسلوب المناسب من أجل المشاركة في الحديث.
ومن المهم عليك أيضًا تحديد ما استوعبه المخاطَب من المفهوم هذا وذاك، من هذا المصطلح وذاك؟! ولا سيّما المفاهيم المجرّدة، فإنَّ المعاني فيها تكون مختلفة بعضها عن البعض.
وأحيانًا نفكر بالأفكار نفسها، ونصل إلى القناعة نفسها، ولكن طريقة التعبير عنها تختلف فيما بيننا؛ لذا فإن استخدامنا مفاهيمَ مختلفةً في التعبير عن الفكرة نفسها يؤدّي إلى سوءِ تفاهم فيما بيننا.
وأحيانًا يحصل العكس تمامًا؛ فإن الأفكار التي في أذهاننا تكون متضادة ومتعاكسة مثل الليل والنهار تمامًا، إذ إننا نعبّر عن هذين المعنيين المتضادّين باستخدام الكلمات نفسها انطلاقًا من مفاهيم خاطئة.
يبدو ظاهريًّا أننا تفاهمنا، ولكن في الحقيقة لم نتّفق على أيّ شيءٍ معًا، ولم نفهم بعضنا بعضًا!

-13-

كان أحد الدراويش ينظر من النافذة إلى الأسفل، فرأى درويشًا آخرَ يمرُّ من الطريق. وعندما وقعت عينا كلٍّ منهما على عَيْنَيِ الآخر أشار الذي في الأعلى بسبّابته نحو الأسفل، فما كان من الدرويش الآخر الذي رأى الحركة هذه إلّا أن يباعد بين أصبعيه السبابة والوسطى على شكل حرف V مشيرًا بذراعه إلى الأعلى، ثمّ ابتسم كلٌّ واحدٍ منهما للآخر. ومضى الدرويش الذي في الشارع في سبيله. وكان هنالك رجلٌ يراقبهما من بعيد، فصار لديه فضولٌ لمعرفة مغزى الحكاية تلك، فمضى نحو الدرويش الذي في الطريق وسأله: «ماذا أردت أن تقول؟ وبماذا ردّ عليك صاحبك؟ «، فقال:» إنّ الذي في الأعلى أشار إليَّ متسائلًا: «ماذا سيحدث إن أمطرت السماء؟ «فأجبته رافعًا كلتا أصبعيَّ إلى الأعلى بأنه: «تنبت الأعشاب «، فذهب الرجل إلى الذي كان ينظر من النافذة، وسأله السؤال نفسه فردَّ عليه قائلًا:» قلت له: سأفقأ عينك إن نزلت إلى الأسفل، ففهم هذا؛ ولذا أجابني: وإنْ صعدت إليك لأفقأنَّ عينيك الاثنتين!».

هذه هي كل الحكاية.

طبعًا، نحن لا نستطيع أن نتكلم بلغة الإشارة مثل الدرويشين، ولكننا أحيانًا نستخدم لغة غريبة تؤدي إلى سوء تفاهم فيما بيننا، وحينها لا يكون بيننا وبين الدراويش أي فرق؛ ولكي تتحاشي الخلط في استخدام المفاهيم اسألي مخاطبك: بأيِّ معنى استخدم تلك الكلمات؟ وماذا يقصد منها؟ وماذا لا يقصد؟ ما هدفه منها؟

وأنت أيضًا حينما تقومين بعرض أفكارك، ينبغي عليك أن توضّحي بشكل جَلِيٍّ بأيّ معنى استخدمت تلك المفاهيم المهمة.

لا بُدَّ من تعريف المفاهيم، وإلّا فإنّ المناقشات، والحوارات التي ندخل فيها محكومٌ عليها بالذهاب سدًى.

وليس ثمّة من سبيل لأنْ يتفاهم شخصان يحمّل كلٌّ منهما الكلمات معاني مختلفة. ما أسعد مَنْ يدرك أن صمتك فضيلة، وإصغاءك فنٌّ، وتفكيرك مزيّة!

-14-

كان عندنا أستاذ فرنسي يتبنّى الفلسفة الوجودية. كلما وجد الفرصة سانحة أمامه لا ينفكّ يشرع بالحديث عنها: إنها تعطي قيمة للإنسان. وتعطي أهمية كبيرة للفرد، تتحدث عن الوجود، وعن تحقيق ذاته.
كان ينصحنا دائمًا بقراءة كتب حول هذا الموضوع السالف، ولكن بشكل غير مباشر.
لا أدري ماذا تقول أنت عن هذه الفلسفة؟ ولكنني معجبة بها.
وقد كتب «سارتر» روايات كثيرة، ومقالات عديدة حتى يوضِّحَ لنا هذه الفلسفة؛ لذا أجريت بحثًا مفصّلًا حول سارتر. وقرأت كتابًا عنه، كتبه شخص يعرفه عن قرب، كان بينهما صحبة وألفة. في النهاية مات سارتر. وحضر هذا الرجل جنازته.
قاموا بحرق جسد سارتر، ولم يبقَ منه سوى حفنة رماد. وكاد صديقه يُجَنّ عندما رأى المشهد ذاك وهو يقول: «أهذا هو سارتر؟». كان الرجل الذي يتحدث عن هذا الأمر لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بشيءٍ اسمه الآخرة!
انظر إلى الحادثة! حفنة من الرماد، فلتذهب أدراج الرياح. وقد أثر هذا الحدث فيّ أيضًا، ولم يغادر بالي لأيام.
من المؤكد أنك قد قرأت آثاره. ما رأيك بسارتر؟ وإلى أيّ مدى تعرفه؟
سارتر هو الذي يقول: «إن الشكل في الموجودات كلها - سوى الإنسان - يتحقق مع الماهية. وأما عند الإنسان، فالوجود سابقٌ للماهيّة، والشخص يؤسس نفسه كالبناء، وهو المسؤول عمَّا يفعله. ومتحلّل من كلّ قيد، يستخدم إرادته الحرة، ويكون مثلما يريد».
هذه حقائق مهمة. «الإنسانية» تُكتسَب، نعم. هي نتيجة لجهد مكثف مبذول. هي قيمة، يجدها فقط من يبحث عنها. لقد كشف سارتر أحد طرفي الحقيقة لكنه لم يستطع أن يتقدم أكثر من ذلك. سارتر؛ كاتب خرج إلى الطريق من النقطة الصحيحة، لكنه وصل إلى نقطة خاطئة.
حسنًا! ولكن بناءً على أيّ شيء سيُتّخذ القرار؟ يقول سارتر: إن الإنسان يضع القوانين بنفسه، وسوف يعيش بناءً عليها كما يحلو له.
وهنا تبدأ المشكلة، فإذا قام كلُّ شخص بشراء قماش، وبيعه حسب مقياسه ومعياره، فتأمّلي الفوضى التي سوف تُخلَق.
الإنسان أناني. يزيّن لنفسه، لكنّ عقل الإنسان لا يستطيع أن ينظر من عَلٍ، ولا يستطيع أن يحيط بكلّ شيء، ولا يستطيع أن يفهم الحقائق كلها بشكل كلي، وكذلك فإن البناء الاجتماعي، والبيئة، والثقافة، وما إلى ذلك عوامل مؤثرة في شكل التفكير، وإدراك الحقائق عند الإنسان. وهي أيضًا تمنعه من إعطاء أحكام موضوعية تناسب الجميع.
ينقسم الفلاسفة الوجوديون قسمين؛ قسم مؤمن، وقسم ملحد. ويوضح الوجوديون المؤمنون آراءهم بقولهم: «نعم، الإنسان يبني نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يضع القانون. وعليه أن يخضع للقوانين الإلهية حتى يكون إنساناً راشداً «، وأما الوجوديون الملحدون - ومنهم سارتر - فيرون أن:
«الإيمان يضيّق الحريات، وإذا أراد الإنسان أن يحقِّقَ ذاته فعليه أن يكون حرًّاحرِّيَّةً مطلقة»!

في الحقيقة لا يمكن للإنسان أن يكون حرًّا بلا حدود، فهو حين ينكر خالقه باسم الحرية، فإنه سيكون بذلك أسيرًا للمخلوقات كلها، وسيكون عبدًا لها.
وهو بذلك يغدو سيدَ نفسه، سيّدًا لذاته فقط، وتكون «الأنا» سيده. ويبقى بذلك سجينًا في زنزانة «الأنا «.
لقد كان تأثير فلسفة من هذا النوع على المجتمع كبيرًا، وواسعًا.
إن المفكرين الذين يحلّقون في وادي الضلالة بأجنحة «الأنا» قاموا بإثارة عصب الكبرياء عند الإنسان، والذين أَصْغَوْا لهؤلاء، وآمنوا بأفكارهم وقعوا أسرى في ظلمات الوحدة، والعزلة تحت اسم الاستقلالية الفردية.
فهم يديرون ظهورهم للدين، فيظلون محرومين من نور الوحي، ثم يكونون مثل «حشرة الحباحب» تقتصر على نورها الخاص. ويتصرفون كأنهم غير محتاجين لأحد، وهكذا خطوة بعد خطوة يصابون بالوحدة والانعزال.
أصبح المبدأ الأساس للمعاصرة، والمَدَنِيّة عندهم استخدام «أنا» بدلًا من «نحن»، فنشأ بذلك أفرادٌ جعلوا كلَّ شيءٍ ضحية لأنفسهم من دون أيّ تحرّز. وهذا ما يجعل القول إنّ: «الإنسان هو ذئب الإنسان «يجد لنفسه موطئ قدم راسخة، وقد قام مَنْ لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، ولا بالآخرة باختراع آخرة وهمية لهم، إذ يتوهمون أنهم سيبْقَوْن خالدين في الذاكرة الإنسانية من خلال الآثار التي خلّفوها وراءهم.
إنَّ هذا النوع من الفلسفات لم يجلب على الإطلاق أيّة سعادة للإنسان، فبَقِيَ الأفراد منعزلين في جزيرتهم الإلهية التي صمّموها.
وربّما هذا هو الجزاء العادل لجُرْم الأثَرَة، والأنانية، والمركزية الفردية.
في الحقيقة إن الإيمان هو الوحيد الذي يجعل الإنسان حرًّا بمعناه الحقيقي. فالذي يكون عبدًا للخالق الواحد، صاحب كلّ شيء، ينجو من عبادة الأشياء كلها.

-15-

الجمال، والقبح في هذا الكون متداخلان، يسيران جنبًا إلى جنب، فحيثما وُجِدَ الجمال، وُجد إلى جانبه القُبْحُ أيضًا. لماذا يا ترى؟
لأنّ بضدّها تتميّز الأشياء، فعلى سبيل المثال، لولا الظلام لما عرفنا النور، ولولا الجوع لما عرفنا الشِّبَع.
لا تُعرف درجات الجمال إلّا بالقُبْح. والذي يجعل الجميل جميلًا هو قبح القبيح؛ ولهذا السبب، فإنَّ للقبح أيضًا جمالًا من نوع آخر.
الأسود هو الخلفية للكتابات البيضاء. يتراءى الأسود عدوًّا، ولكنه في الحقيقة يخدم الجمال. أكثر الجمال في الدنيا هو جمال نسبي. فما نقول عنه جميلًا هو قبيحٌ قياسًا مع ما هو أجمل منه. وأجمل منه يبدو قبيحًا إلى جانب الأجمل منه، وهلمَّ جرًّا.
أمّا الجميل الذي يعتمد على القبيح لإظهار حُسْنه، فلن يكون جميلًا حقيقيًّا. فالجمال الحقيقي ذاتي، لا يكون جميلًا بِنَاء على شيءٍ آخرَ.
النور يولد من الشمس، وكذلك الجمال يولد من الجميل. وكما أنَّ تلألؤَ النور على الماء يدلّ على الشمس، فكذلك أنوار الجمال التي تتلألأ، وتنطفئ في نهر الزمان تشير إلى الفنان، والمُبدع الحقيقي، وجمال الخالق الأبديّ مكتوبٌ على صفحات الدنيا المحدودة. كلّ موجود هو حرف محكوم عليه بالمَحْوِ، والزوال. وهو بظهوره، وفنائه يُعرب لنا عن جمالٍ باقٍ لا يزول.
الجَمال واحد من الحِكَم في خلق الكون. نستطيع أن نفهم هذا من خلال معرفتنا لأنفسنا ولو قليلًا.
نحن البشر نحبُّ فنوننا إلى درجة العشق. إننا نرغب في رؤية ما أبدعناه، ونرغب أيضًا بأن نُري ذلك للآخرين، فمثلًا، نرسم صورةً نعجب بها، نشاهدها، ونكون سعداءَ بذلك. ومن ثمّ نعرضها؛ حتى يشاهدها الآخرون أيضًا.
وهذه الخصوصية تجعلنا نفهم لِمَ خلق الله المُصوّر هذا الكون! فهو قد جمع الحكمة، والفنَّ في مكانٍ واحدٍ.
أراد الله أن يرى جماله الذي يشبه الكنز المَخْفِيّ، وأن يُظهره أيضًا، فخلق الكائنات من العدم، والدنيا هي مرآة لجماله تعالى، وكذلك الآخرة.
ولا ريبَ في أن الكائنات مثل أيّ أثرٍ إبداعي تنتظر مشاهديها، ومتأمّليها، فإذا لم يكن للفن مَنْ يفهمه ظلّت الإبداعات الفنية غارقة في الظلمات.
وقد ألقيت هذه الوظيفة على كاهلنا أوّلًا؛ فقد أُرْسِلَ الإنسان إلى هذه الدنيا مزوّدًا بمواهبَ تجعله يرى الآثار الجميلة، ويقدّرها.
وهنالك توافقٌ بين الفنِّ الذي في الآثار، وبين المواهب عند الإنسان كمناسبة المفتاح للقفل.
وهذا يدلُّنا على أنهما أثرٌ للمبدع نفسه، لمبدعٍ واحدٍ، فهو الذي خلق المخلوقات، وهو الذي أرسل المشاهدين.
نحن بشر، نعشق كلَّ ما هو جميل، ونريد للشَّيء الذي نحبه أن يكون باقيًا خالدًا أبدًا. ولكن هذا غير ممكن، فقد ختم الله على وجه ليلانا بختم «الفناء».

إنَّ قلوبنا التي تبحث عن «البقاء» لدى المعشوق، تنكسر مع انكسار المرايا. وإنّ هذا هو جزاء العاشق الذي أضاع الهدف في المحبة، فتعلق بالأثر بينما كان عليه أن يحبَّ المُبْدِع. حرام علينا الطمأنينة طالما لم نجد منبع الجمال، وما دمنا لا نعشقه!

-16-

إنَّ حكم الخالق الذي أوجد الكون من العدم يسري على كلِّ شيءٍ، وهو بحسب المعتقد الإسلامي من قذف الإيمان في قلوب المؤمنين، وهو من أنار عقولهم. ولو شاء لهدى الناس أجمعين.
وإنك تنظر أيضًا، فتجد أن أصحاب نظرية التطور، والماديين، والملحدين استيقظوا من نومهم بصفة مؤمنين! إنَّ الذين يتكلَّمون ضد الإيمان في الإعلام يتحدثون هذه المرة عن الإيمان متأثرين.
ولو حدث ذلك لكان في غاية الجاذبية. إن الذي هوعلى كلِّ شيءٍ قدير يستطيع ببساطة أن يجعل عباده يفعلون ذلك، فلماذا لا يجعلهم؟ لأنه لا يريد أن يُكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، يعرض عليهم الإيمان، فيرسل الرسل، ويُنزل الكتب، لكنه لا يُكرههم. ولا حسابَ على مَنْ لا معصيةَ له من عباده، فالملائكة الذين لا يُحصَى لهم عددٌ مثلًا معصومون، فلا يعصونه البتَّة، ويفعلون ما يؤمرون.
إنه يريد للعباد أن يؤمنوا بملء إرادتهم دونما إكراه؛ ولذلك فالإنسان مُهمٌّ جدًّا. إيمانه بملء إرادته مَيْزة فائقة لا توجد حتى عند الملائكة. لا يُكره من لا يريدونَ الإيمان على الإيمان، فلا يتوصَّل إلى مُبتغاه إلَّا مَنْ يبحث بنيّة حسنة، أما الذين يبحثون دون مسوِّغ، فسوف يجدون ما يبحثون عنه.
إنَّ الإيمان ليس مجرَّدَ ظاهرة تطفو على السطح بالمحاكمة، والمعلومات والعقل، فحسب.
إن الأشياء التي عاشها الشخص حتى ذلك اليوم، والأشياء التي فعلها وأنجزها، وعاداته. كل تلك الأشياء تؤثّر فيه.
إن طرز الحياة دافع مهمّ في الاعتراف بحقّ الإنسان، أو إنكار ذلك الحق، كما أنّ للمسألة بُعدًا أخلاقيًّا، وربّما هذه هي النقطة المفصَلية الأهم، فالحكم المُسْبَق، والتصوّر الأوَّلِيّ، والتكبُّر، والغرور، والعناد، ونحوها من خصائص، إنما هي عوائقُ تمنع نور الإيمان من أن يدخل القلوب.
ويعدُّ التكبُّر أسمكَ ستارةٍ، وحجابٍ يمنع نور الإيمان من أن يَلِجَ القلوب، ولذلك، فبسبب التكبُّر لم يُطِعْ إبليسُ الأمر الإلهيَ، وامتنع عن السجود.
إنَّ الشخص المتغطرسَ لا يثق إلَّا بنفسه، ويرى نفسه فوق الآخرين. إنه يعمَى عن عيوبه، ويجهل عجزه، فكيف له أن يؤمن بربّه، ويثق به ويتوكّل عليه، ويتوسّل إليه!
يعرف من نفسه ما يملك، فيعقد الآمال على ماله، وثروته، ومنصبه وولده. صدرُهُ مملوءٌ بالغرور، يسهل خداعه حتى إنه يغدو لعبة للشيطان، ويعتقد أنَّ ما بيديه سيبقى خالدًا له.
يتعلَّق بالدنيا بكلّ ما أوتي من قوَّة، ويعبُد هواه، ويجعل من نفسه فرعونَ، وينظر إلى الناس من عَلٍ.
ثمَّ يسيطر عليه الظنُّ بأنه هو من يَهَبُ الرِّزْقَ للعاملين بإمرته؛ ولذلك تراه ينتظر التقدير من الجميع، فإذا لم يقابَلْ بالاحترام استشاط غضبًا.
يرغب في أن يرى الضعفاء يتوسلون إليه،أو أن يتصرفوا أمامه بشكل يستدعي الشفقة على الأقل.

ثم إنه يُقبّل أرجل مَنْ هم أكبر منه من أجل مصالحه الشخصية، ويعبد العباد، وهذا هو سبب انتظاره العبادة من الناس معدومي الحيلة.

-17-

جاءت أمس إحدى صديقاتي، وباتت عندنا، سهرنا وتكلّمنا حتى الصباح، وكانت لا تفتأ تلهج بقوله: «عندي مشكلات». كانت تقول إنها مسحوقة من وطأة المحيط، والمجتمع، وإنها مُحْبطة. فقدت أملها وكأنّها صارت فضلة، فضاقت عليَّ روحي، وحزنتُ.
لم أتحمّل في النهاية، فقلت لها: «انتبهي صديقتي! ليس هناك شيءٌ يُدْعَى محيط ومجتمع، ثمّة أنت فقط، والمشكلات التي تحدثت عنها أنت صانعتها، وهذا طراز تناولك للموضوع»، فسألتني: «وهل تريْنَني أخترع، أو أختلق؟»، فقلت: لا، ما قصدت هذا، إنما عنيت أنك إذا ما منحت نفسك القوّة، فإنّ المشكلات تصْغُرُ، وإن العوامل الخارجية تفقد أهميّتها، وتأثيرها وضغطها، وقوّتها بنسبة مهمّة. فقالت: «وما معنى ذاك؟ فقلت: «إنّك حيّة، وإنَّ الأمراض التي تسمح للجراثيم باجتياح بِنْيةٍ ما، فإنّها تتعلق فضلًا عن قوة الجراثيم بضعف البِنْية.».
«كيف؟». «إنّ أجسادنا تعيش متداخلةً مع الجراثيم، والميكروبات متجاورة معها، لكننا لا نمرض في الحال؛ لأن بِنْيتنا قويَّة، وإنها تُهزَم متى ما أصبحت ضعيفة.
وكذلك أنت يا صديقتي إذا ما استجمعت قواك، فإن العوامل الخارجية تهبّ كأنها عاصفة خفيفة لا تلبث أن تمضي، ولا تقدر أن تسقطك.».
لقد قلت لها أشياء تشبه تلك، فشعرت بالراحة قليلًا. كانت هذه أقوالك لي في أوقاتي الحرجة. كانت نسمات قادمة منك.
إنني أحب الناس، وأريد أن أساعدهم، بالضبط مثل مساعدتك لي.
لقد قلت أشياء جميلة، وطالما أنك تحبين مساعدة الناس، فضَعي نُصب عينيك هذه النقاط:
إن المبالغة في الإحسان لها تأثيرُ السُّمّ؛ فتجعل المخاطَب تحت المَنّ، وتبعده عنك، بل قد تكون حتى سببًا من أسباب الخصومة.
يمكنك أن تعطِيَ قيمةً لمُحدِّثك، لكن دون أن تبدِيَ ذلك، فقد لا يحتمل، وقد يتدلّل، وقد يظنّ أنك مولعة به.
لا تفتحي أبوابك، ونوافذك على مصاريعها؛ فثمَّة جاذبيّةٌ للمجهول، وإن ستائر الأسرار تفعل فعل المغناطيس.
لا تعطي كلَّ ما بيديك، انتظريه يعطش، يَجُع، ثم يطلب. وإذا ما أشبعتِ، فالحاجة تنتهي؛ لذلك اقتصدي، فإذا أردت أن تُعرف القيمة، والقدر فافعلي ذلك وفق الأصول. لا تكوني طالبة، بل مطلوبة!
الناس أشبهُ ما يكون بالظِّلال؛ إن ذهبتَ تَبعُوك، وإن تابعتهم فرُّوا.
تبنَّي ذلك منهجًا، لكنْ إيَّاكِ أنْ تَرَيْ نفسَكِ كبيرةً!

على وجه الأرض ظلمٌ، ودماءٌ، ودموعٌ، وأبرياءُ يُقتلون.
تُستلب أموال معدومي الحيلة، وتُنتهك أعراضهم، بعضهم يَسحقون وبعضهم يُسحقون.
إنني أرى ذلك وأحزن، وليس بيدي من الأمر شيءٌ، فلا أستطيع أن أَحْمِيَ الضعفاء، أشعر بالكآبة، فقل لي ما يواسيني. إلى أين سينتهي بنا المطاف؟
تتولد الأحكام المجحفة من رؤية الدنيا فقط في معادلة الدنيا، والآخرة، ومن عدم التفكير بالآخرة.
الدنيا دار امتحان، وسينتهي الامتحان حين يأتي أجله، وستغلق ساحة العرض، وما من شخص إلّا وسوف يعاقَبُ، أو يُكافأ بالنظر إلى عمله.
لن يكون هناك فائدة، أو مكسب لأعمال الظالمين هنالك، وسينتصف ربنا صاحب الانتقام من الظالمين للمظلومين.
وأما المظلومون، فسوف يحسن إليهم بجنة أبدية، بدلًا من هذه الدنيا الفانية، وسيكون لهم مكافآت لا تخطر على قلب بشر.
ولو عُرِضَتْ النِّعَم التي أُعِدّتْ للأبرياء لقال كلّ من رآها: «يا ليت هذه المصيبة نزلت بي، وحصلتَ على هذه النعم».
إن المؤمنَ الذي يموتُ نتيجة آفةٍ ما يُعدّ شهيدًا، أما أصحاب الخطايا من المؤمنين الذين يتعرّضون للظلم، فإنّهم يتطهّرون حتّى يرتحلوا عن هذه الدنيا، ويلْقَوا اللهَ تعالَى، وما عليهم من خطيئة.
وإن البريء الذي يُقتل نتيجة ظلم سيفوز بحياةٍ خالدةٍ بدل دنياه الفانية، ولا ريبَ في أن مَنْ يستبدل الباقي بالفاني هو الرابح. أما الظالمون، فإن عذاب النار في انتظارهم، سوف يتعرّضون لعذاب في جهنّم يجعلنا مطمئّنين تمامًا إلى حِسّنا العَدَالِيّ. يدرك المؤمن الكامل حقيقة العذاب المُعَدّ للظالمين. يفكّر به، فيكون كأنّه انتقم من الظالمين.
على المؤمن أن ينظر بعين الإيمان إلى كلِّ شيءٍ، وعليه أن يرى في كل حادثة تمرُّ آثارَ الرحمة، وجوهرها، ووجهها.
إن جميع المخلوقات جميلة إما بنفسها، وإما من حيث النتيجة وليس ثمه شر مطلق في المخلوقات.
إن وراء الشر الذي يبدو في الظاهر خيرات كثيرة، ولا يرى ذلك إلّا من ينظر بعين الإيمان.

ابن عمي رخاء. الماديون، وأصحاب نظرية التطوّر ونحوهم. سأبحث، وأسأل، لكنّه لا يدعني وشأني.
بين الفينة، والأخرى يرسل إليَّ كتاباتٍ تدعم وجهة نظره، وأفكاره.
يمكن تلخيص ذلك بـ «يمكن أن يتشكّل الكونُ بتكوين نفسه بنفسه».
أرسل إليّ الليلة رسالة جديدة من هذا القبيل: «يمكن للاحتمالات المنخفضة أن تتحقّق عبر ملايين السنين».
إن رخاء لا يقول ذلك على الإطلاق إنما يقول أشياء أكثر تعقيدًا، ويستعمل كلمات علمية أكثر رمزية وتجريدًا. ألا تتذكر؟ كان كذلك أيضًا.
يقول في موضع آخر: «إن بداية الكون التي نجهل سببها ليست دليلاً على وجود خالق ما» أعتقد أن هذا الفتى ليس مرتاحَ النفس، ويعتقد أنه لو أن الآخرين قَبِلُوا أفكاره فإنهم سيريحونه أيضًا.
إنَّ الحياة على الكُفر تشبه المَشْيَ فوق الجليد؛ فتجعل الشخص متوتّرًا باستمرار.
وإن مثل هذا النوع من الكتابات يستفزّك، فإن كان وسيلة لتفكيرك فلا بأس، فالحكمة من وجود الشيطان هي هذه أصلًا.
حين يُقال: «شيطان» يقفز إلى عقل الإنسان دوماً شيطان غير مرئي، وكأنه من جنس الجن. ثمَّة نوعان من الشياطين؛ وفي سورة الناس يقول: «مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» بعد شرحه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. نعم، هكذا؛ مثل الشياطين الذين لا يَرَوْنَ ثمّة شياطين مرئيُّون يحاولون باستمرار نشر الكُفْر، ويعمدون للبحث عن طرائق تمنع الإنسان من السَّيْر في سبيل الله.
لقد حسد إبليس الإنسان على خلْقه، ثم تغطرس، واستكبر، فطُرِد من الجنة بسبب عدم انصياعه للأمر بالسجود، وقد قال الله عن ذلك: «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» سورة الأعراف.
هذا الموضوعَ مهم، وسنتكلم فيه مرة أخرى لاحقًا. معرفتك بحيل إبليس يمكن أن تفيدك.
إن الذين لا يريدون أن يؤمنوا من الماديين، والتطوُّريّين الذين يحاولون أن يبرهنوا على صحة أفكارهم المتناقضة بجلب الماء من ألف ساقيةٍ يستشيطون غضبًا حين لا تلقى أفكارهم قبولًا، ويتصرّفون بشكلٍ عدوانيّ.
على كلّ حال دعينا منهم، ولنلتفت إلى أشغالنا؛ و«لنتفكّر» قليلًا، وإن شئت أن ترسلي تفكّرنا هذا إلى ابن عمّك، فافعلي. من يدري لعله يعتبر.

-20-

فكّري بأن بِنَاءً جميلًا صار مرآةً لفن العمارة؛ بناءً منظّمًا، ومتوازنًا، وبُنِيَ بحكمة. حتّى إن لم يقل أحدٌ من الناس بأنّ البناء صُمِّمَ من قِبَلِ أحد المعماريين، فأنتِ تعلمين ذلك؛ ذلك لأنّ لسانَ حال البِنَاء يُعْرب عن مُبْدِعِه في كل لحظة، ويبيّنه، ويعرّفه.
فإذا خرج علينا قائلٌ، وقال: «بحثت في كلّ موضع من البناء بيد أنني لم أعثر على بانيه، فهذا يعني أنه غير موجود؛ وهذا البناء بُنِيَ من تلقاء نفسه»، فتسكتينه بقولك: «دعك من السخافة؛ إنَّ عدم رؤيتك للمعمار لا يعني عدم وجوده، وإنَّ كلّ نقشٍ في هذا البناء لدليل على المعمار».
فلو لم يُعترف بالمعمار، فعلى كلّ حجر في البناء أن يكون معمارًا بالضرورة.
فضلًا عن ذلك، فإن قيام الأحجار بفعل البناء يستلزم اتفاقها، ونقش أنفسها واجتماعها في ثنايا خطة ما. وإنَّ سخافة هذه الفكرة تبدو جَلِيَّةً للغاية.
إن قصر الوجود المترامي الأطراف الذي نقضي فيه حياتنا لهو آيةٌ معمارية بديعة. ولا شك في أنّه يفصح عن مبدعه، ومتقنه، ويبيّنه، ويعرّفه. والذين ينكرون وجوده يمنحون جميع الذرات درجة الألوهية، ويضطرون للإقرار بعدد لا يحصى من الآلهة بدلًا من إلهٍ واحد.
فضلًا عن ذلك، فقصر الكائنات مختلف عن الأبنية الأخرى، وفيه ما ليس فيها؛ فالأجزاء التي يتكوّن منها هذا القصر تتغيَّر في كلّ لحظةٍ، ولا تبقى في موضعها قط، وتمضي إذ يحين أجلها، ويشغل مكانها أجزاء جديدة؛ ومع ذلك، فإن نظام البناء، وانتظامه، وجماله لا يفسد أبدًا.
الكائنات فقط هكذا؟ لا! إنَّ الصانعَ الذي لا تراه العيون لكنَّ آثاره تدلُّ عليه ليبنِيَ ملايين الأبنية من الملزمة ذاتها، وكلّ موجود يحمل في أعماقه المواصفات الفريدة نفسها.
تأمَّلي، حتى أنت مثل ذاك القصر صُنِعْتِ من مليارات العناصر، وأحجارك تتبدل باستمرار، لكنك تبقين نفسك كما أنت!
هناك أعدادٌ لا تُحْصَى في معرض الدنيا، كلٌّ منها ليس أقلّ من الآخر في بديع الصنعة، أشكالها متنوّعة، ومواهبها مختلفة، ووظائفها متعددة، وألبِسَتُها مختلفة، وأغذيتها كذلك.

كل موجود منها يصدح قائلا: «إننا آثار ميدع، مُتقن، فأيُّ أثر بُنِيَ مصادفة حتى نبني نحن كذلك». فمن يستطيع إسكات هذا الهتاف؟!

-21-

بعض العلماء يقولون: «إن الإسلام دين العقل». ما معنى ذلك؟ أظن أنّهم العقلانيّون.
قديمًا عرفت رجلًا ما، وكان عالمًا صاحب اختصاص. ما كان يرفض الدين، لكنّه طوَّرَ لنفسه دينًا خاصًّا بها.
كان هذا الرجل كسائر المعلّمين يقول: «إنَّ الأسلامَ دينُ العَقْل»، فيقبل ما يوافق العقل، ويُعرض عمَّا يخالفه.
أردت أن أفهمه بشكلٍ أفضلَ مفكِّرًا أنّ: «البلاغة مراعاة المخاطَب»، فسألته لماذا يفكّر هكذا، فأجابني، واستمعت إليه بصبر حتى نهاية كلامه. ثم قلت له: «لا أعرف إن كنت قد لاحظت أنك تدافع عن أساس رسالة المذهب المسمّى بالمعتزلة»، فقال: «وما المعتزلة؟ من هم؟ لا علم لي بهم». فقلت شارحًا باختصار: «إنه مذهبٌ عقليٌّ ضالّ يقدم العقل على النقل، ويشبه تيار المذهب العقلي في الفلسفة، فقال: «لا يُعدّون على باطل، فالعقل مهمٌّ جدًّا في الإسلام إلى درجة أنه لا يكلّف من حُرم من العقل. أوليس الإسلام دين العقل؟»، فقلت: «نعم ولا. لا؛ لأن الإسلام دين الوحي، ويعتمد على الوحي. ونعم؛ لأنّ كلّ ما قاله القرآن ينسجم مع العقل، لكنّ العقل وحده لا يدركه، بل إنه يحتاج إلى نور الوحي المضيء».
فهذا القول الإسلام دين العقل مهم للغاية الأهمية بحسب المعنى الذي استعملناه، أو رمينا إليه.
فإذا تم استعمال كلمة «الإسلام دين العقل» بمعنى أنه: «يمكن أن تكون معطيات الدين الذي وجده العقل»، فذاك خطأ. فضلًا عن ذلك فليس هناك عقلٌ، بل عقول، ويمكن لكلِّ عقل أن يجد أشياء مختلفة ولسوف يجد.
والظن بأن ما يجده الشخص بعقله حقيقة لا تقبل الجدل، إنما هو انحراف عقلي.
العقل آلة تفيد في الفهم. أما مكان الإيمان، فهو مختلف. موضع الإيمان هو قلب الإنسان؛ إنّه يستعمل بيانات العقل دون شك، لكنّه لا يقتصر عليها.
للقلب حدْس خاصٌّ به؛ فأحيانا يستوعب الحقيقة فورًا. إن الإنسان يعلم ويقيس، ويزن، ويحاكم بعقله، لكنه يؤمن أو لا يؤمن بقلبه؛ فبينما يؤمن إنسانٌ من إنسانين، تلقّيا ذات المعلومات قد لا يؤمن الآخر.».

-22-

أتكلم معك منذ وقت طويل، وقد أفصحت عن آرائك في موضوعات كثيرة؛ لكنّك ما دخلت في موضوع السياسة قط، وقد استرعى ذلك انتباهي.
كيف تعرّف بنفسك في هذا الموضوع؟ أتوق لمعرفة ذلك. فطالما استأذنتك في السؤال عن كلّ شيءٍ، فدعني أسأل عن ذلك.
تعرف! عندي امتحاناتٍ، وأريد أن أستأذنك قليلًا، إلى اللقاء. اعتنِ بنفسك جيّدًا.
لقد اتّخذت لنفسي قدوةً من العلماء الحقيقيين الذين لا يأبهون للسياسة. وهؤلاء العلماء الذين كان شغلهم الشاغل نشر الحقائق الإيمانية، وتعميمها لم يتعلّقوا بالسياسة في يوم من الأيام؛ وكانوا حريصين كلّ الحرص على ألّا يجتمعوا بساسة الدولة، وكذلك فإنهم لم يغترّوا بالثناء. لم يلهثوا وراء المناصب والمواقع والوصوليّة؛ وليبيّنوا خطر ذلك، فقد كتبوا في كتبهم أقسامًا عن العلاقات بالسلاطين، أدّوا وظائفهم في العلم والإرشاد، واكتفوا أحيانًا بتنبيه الحكّام بشكل مناسب للأصول.
لكن، وبكل أسف، فقد كان هناك مَنْ لا يظهر هذه الحساسية من المرشدين والشيوخ والعلماء، فحشروا في سبيل الجشع السياسي مريديهم، وطلبتهم ومؤيّديهم في المناكفات السياسية. وتسبّبوا بالتمرّدات، واستعملوا قضية الحكم، ولهثوا خلف حظوظهم. هُزموا في النتيجة، ولم تنفع مجادلاتهم إلّا في الفتنة، والفساد، وإثارة الاضطرابات، ولم يبلغوا غاياتهم، وتسببوا بإهلاك أنفسهم، وأتباعهم البسطاء الذين يتّبعونهم من غير سؤال، أو تحقيق.
إن عدم الانخراط في الحديث عن السياسة له سببٌ آخرُ أيضًا؛ وهو كونهم يُعرّفون الإنسان بجملة من المفاهيم المحفوظة، ولست أرغب في أن أكون أسيرًا لتلك المفاهيم.
ثمّة عدد محدود من الأزياء الرسمية في أيديهم، وإنهم يحاولون أن يلبسوا الإنسان أحد تلك الألبسة. إن تلك الألبسة ضيقة عليّ؛ ولا يعجبني أن أكون على وتيرة واحدة، أو نمطيًّا محكومًا للقوالب.
أنا إنسان، وأهم من ذلك أنني مؤمنٌ مسلمٌ والحمد لله. وهذا يكفيني.
أود أن أرتحل عن هذه الدنيا إنسانًا بسيطًا ومؤمنًا إيمانَ العجائز.
قلت لي: «اعتنِ بنفسك جيّدًا» إن هذه النصيحة ذكّرتني بمصراع بيتٍ من شعر أحد شعرائنا القدامى، دعني أقلّه بلغة اليوم:
«اعْتَنِ بِنَفْسِكَ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ جَوْهَرُ الْعَالَمِ، إِنَّكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ أَعَزُّ الْمَخْلُوقَاتِ».
أحاول النظر في نفسي، فأرى كأنَّ المخلوقات اختُصرت عندي، وعندك، وعنده!
إن الإنسان هو عقل العالم، وقلبه، ووعيه. وإن التدقيق، والبحث، والعلم والتفكير، والحب ضريبة له. وفي بعض الأحيان يعيش الإنسان دون أن يَعِيَ أهمّيّتَه، فيضيع عمره في أماكن فارغة، ويموت دون أن يعرف. إنه يمضي ويُمْحَى عن هذه الأرض من غير تحقيق في سبب وجوده، ومن غير تفكير في معنى الحياة، ودونما تحقيق فيما يجري حوله.
أنت أيضا اعتنِ بنفسك جيّدًا، واقرئيها جيّدًا، فمن لا يعرف نفسه أحرى بجهل الآخرين.
«وَمَنْ يَعْرِفْ نَفْسَهُ يُعْرِفْ رَبَّه».

-23-

اجتمعنا من جديد نحن الأصحاب، وارتشفنا القهوة، تحدّثنا وتباحثنا. كان البناءُ المقابلُ دارَ عَجَزَة، وكنا نستطيع أن نرى الجالسين على الشّرفة من رجالٍ مسنّين، ونساءٍ مسنّات.
تحدثنا لمدّة في موضوع «دار العجزة جيدة، أم سيئة.».
قال كوراي: «يجب قتل المتقدمين في السِّنِّ الذين لا يستطيعون العيش دون مساعدة الآخرين، وذلك بأسلوب قتل رحيم»! فسألت بريل: «لماذا؟!».
قال: «لأن الحياة بالنسبة لهؤلاء ما هي إلّا معاناة، كما أنهم يمثلون عبئًا علينا»!
تدخّل قدري قائلًا:» وبأيّ حقٍّ؟ ثم مَنْ سيقرر هذا القرار؟».
فانبرى كوراي قائلًا: «يتّخذ القرار مؤسسة علمية ما، وهذا هو الموافق للعقل في رأيي.»،
فاحتدّت بريل، ونهرته قائلة: «هل جُننت يا كوراي؟! بأيّ حقٍّ تقرر مؤسسة ما إنهاء حياة الآخرين؟!».
فأوضح لها الأمر: «إنّك تنظرين بعاطفة إلى الحادثة، فمنذ الصغر أصبح محتّمًا عليك ما يسمّى بإحساس الرحمة، ولا تزالين تحت ذلك التأثير، ولو فكّرْت بشكلٍ منطقيٍّ لوجدت الحقّ بجانبي.».
انضمّت سراب إلى الجدال سائلة: «حسنًا، اعتمادًا على ماذا استخرجت هذه الفكرة الخالية من الرحمة؟!».
قال: «لأنَّ الطبيعة هكذا، ففي حروب البقاء التي تجري بين الحيوانات يتغربل الضعفاء، ويبقى الأقوياء.»! تدخلت قائلًا: «لسنا بحيوانات، إننا بشر، وهذا هو الفرق. وقولك بغربلة الضعفاء غير لائق. فلو كان كذلك لكان من الواجب ألّا يبقى صغيرٌ على وجه الأرض، وهؤلاء أكثر ما يتغذّى في الطبيعة ويُحمى.». واستمر كوراي في الدفاع عن كلامه كأنه يقرأ من كتاب: «الإنسان حيوان عاقل، وقد تفوّق في معركة البقاء، وصار مسيطرًا على الطبيعة؛ لذلك يجب غربلة الشيوخ، والمرضى والمصابين، والمجانين، والمتخلّفين عقليًّا الذين يعيشون في جيل ومجتمع سليمَين. ولو تخلّصتم من التفكير العاطفي وفكرتم بشكلٍ علميٍّ، لرأيتم أن هذه الفكرة صحيحة، وفي مكانها.».
أعتقد أنّه قرأ هذا الكلام في مكان ما، وتأثر به، فتبنّى تلك الأفكار. لقد تجادلنا طويلًا، لكننا لم نفلح في إقناعه.

إن هذه الفكرة الوحشية ليست بالجديدة، كانتفكرة التطوّري الذي عاش أيام هتلر.
كان هتلر قد تبنّى هذا الرأي كذلك. كان يؤمن بضرورة قيام اصطفاء طبيعي ما من أجل تكوين عرقٍ ألمانيّ نقيّ، وأدّى ذلك إلى البدء بتطبيق فكرة خارجة عن نطاق الإنسانية.
إن حقائقَ من قَبِيل «الحق والعدالة والرحمة» هي إلهيّة من حيث الجوهر، وتستند إلى الوحي، حتى إن المجتمعات التي لا تؤمن بدينٍ حَقٍّ هي الأخرى تحت تأثير الوحي، وسأشرح ذلك أكثر.
أُرْسِلَ قديمًا إلى كلّ قوم نَبِيٌّ، وكانت وسائل الاتصال محدودةً، وكان معظم ما يقال لا يتمُّ تسجيله. وكان يُتَعَبَّد بما بَقِيَ في الذاكرة بعد وفاة النَّبِيّ.
كان النبيّ يُنسى تمامًا بمرور الوقت، بينما تستمر بَعْض المعلومات بحالتها المتغّيرة؛ ولذلك فإن هذا هو سبب وجود حقائق مثل: الحق، والعدالة، والعِفّة، والرحمة لَدَى مجتمعاتٍ بعيدةٍ كلّ البُعْد عن الدين.
لولا إرسال الأنبياء، وإنزال الكتب والصحف لكان الإنسان في مستوى الحيوانات.
إنّ خصائصَ من مثل: «الحق، والعدالة، والعِفّة، والرحمة» هي خصائص إنسانية صِرْفة؛ لكنّ للإنسان جوانبَ أخرى حيوانيةً، وشيطانِيّةً أيضًا، فإذا لم يُرَبَّ، انقلب إلى وحش كاسر.
لنا جهتان؛ إحداهما مادية، والأخرى معنوية. أما المادية، فنقول عنها «البشر»، وأما المعنويّة فنسمّيها «الإنسان».
لا يعترف الماديّون، والتطوّريُّون، والزنادقة بطرفنا الإنساني، بل يعرّفوننا على أننا بشر، وحسب.
حين تكون هذه هي الحقيقة لا يبقى معنًى كبيرٌ للحديث في هذا الموضوع من قِبَلِ أشخاصٍ مثل كوراي.
يجب أوّلًا تقديم الحديث في مسائل مثل التوحيد، والآخرة، والنبُوَّة، والوَحْي. ومَنْ يرفض جوهر هذه الأمور يفكّر بقسوة مثل التطوّريّ الألمانيّ، ويرى ذلك طبيعيًّا. ويقال عن هذا الرأي الشائع في الفلسفة الغربية: «الداروِينِيَّة الاجتماعِيَّة».
لقد تبنّى هذه الفكرة «فريدريك نيتشه»، وأشباهه من الكفار، فنقلوا نظرية أحيائية إلى الفلسفة، ودافعوا عنها، وحاولوا نشرها، وهذا هو السبب في نَيْل بعض الطغاة تقديرًا، ومنزلةً رفيعةً لَدَى الظَّلمةِ، ذلك أن هذه الفلسفة ألبست ظلمهم لباسًا علميًّا، وصَبَغَتْه بها.

-25-

وأنا كذلك فكَّرْت في بعض الأوقات حين أبصرت كبار السِّنِّ: «لماذا يعيشون؟ لو ماتوا لكان أفضل» لكنني ندمت فورًا، وقلت: «ما أسوأني!».
شعرت بتأنيب الضمير. أظنُّ أنَّ لَدَى الإنسان شريانًا كهذا.
نعم، الإنسان أنانيّ، يحمل نفسًا، والنفس تصغي للشيطان على الدوام، وفي مقابل ذلك لدينا أيضًا روحٌ، وقلبٌ، وضميرٌ. ويقع «الجهاد الأكبر» بين هذين الطرفين.
فضلًا عن ذلك تأتي من دواخلنا أصواتٌ تحتوي الخيرَ، وأصوات تتضمن الشرّ؛ وأمامنا اختياران اثنان. إننا أصحاب إرادة، وعليه فيمكننا الإصغاء للأصوات الخيّرة، ونَيْلُ الأجر، وكذلك موافقة الأصوات الشرّيرة، والغرق في الذنوب.
أمَّا بالنسبة لموضوع كبار السِّنِّ، والأمراض والموت، فأريد أنْ أقولَ إنَّ الموت نعمة في الأصل، فهو الوسيلة للانتقال إلى عالم أكثرَ جمالًا. الموت خلاصٌ من زنازين الدنيا، وحبس الأجساد، وسفر إلى وطن السعادة الأبديّة.
على أنه لا حقَّ لنا بقتل أحدٍ باعتبار ذلك، بينما لا يدافع عن عكس ذلك إلَّا عديمو الضمير من الداروينيّين.
أما «لماذا نعمة؟» فجواب هذا السؤال طويل. سأشرح ذلك باختصار، وأتمّي الباقي بنفسك.
الإنسان سيشيخ، شاء أم أبى، وسيغدو لا حول له ولا قوة، لكنْ ثمّة أعباءٌ على كاهليه؛ سيعبد الله، وسيعاني من أجل أن يعيش وهلُمّ جرّا. وحين يشيخ يبيت عاجزًا، فيأتي الموت، ويخلّصه من هذا العناء. فلولا الموت لكان في بيوتنا مئاتُ الأجداد، والجَدّات، ولكانوا سيحاولون العيش بأحوالهم الضعيفة، وعندها ستكون الحياة نوعًا من التعذيب لهم، ولأبنائهم. فلو تصوّرتِ هذا المشهد لأدركتِ كم هو نعمة كبيرة ذلك الموت!
هل الموت نعمة كبيرة لنا فقط؟ لولا أن الذباب والفراشات، ومئات الأنواع من الحشرات التي تُخلق في فصل الربيع تموت في فصل الخريف لكانت حياتها في غاية العذاب، ثم إن الدنيا من ناحية أخرى زنزانةٌ ضيقةٌ مُمِلّة خانقة، إن روح الإنسان تتأفّف منها في كلّ حين، وتأنَفُها، وتبحث عن مكان أوسعَ.
يأتي الموت، فينقل الإنسان إلى عالمٍ واسعٍ، ومريحٍ، وأكثرَ انشراحًا. إنّه الأخ الأكبر للنوم؛ وله طرف ما مريح للإنسان. وكما أن النومَ وسيلةٌ كبيرة لراحة المرضى، والجرحى، والواقعين في المصائب، فأخوه الأكبر الموت كذلك أيضًا.
ولو عددنا جماليات الموت لطال بنا الكلام، فلنتوقّف هنا. لقد تذكّرت فيلمًا وأنا أفكر بهذه الأشياء، وكان فيه ما لفت نظري، إذ يختم الرجل بقوله:
«لدينا مشكلة كبيرة؛ كلّنا يرغب في الذهاب إلى الجنّة، ولكن لا أحدَ منّا أبدًا يريد الموت».

-26-

كان جَدّي وجَدّتي يقيمان في قرية ساحليّة. أول الأمر بنيا بيتًا صيفيًّا هنالك، لكنهّما استقرَّا هنالك لاحقًا. ذهبت لزيارتهما في عطلةِ نهاية الأسبوع، وهاأنذا أكتب إليك من هناك.
كانت هواية جَدِّيَ صيد الأسماك، ولديه قاربٌ، وكلّ يوم يذهب إلى البحر. فهو يحب أكل السمك كثيرًا، كما كان يريد قطعًا أن يُطْعِمَ ضيوفه أيضًا.
إنهما يتقاتلان أحيانًا، يتصنّعان ذلك طبعًا، ليلعبا، ويتسلّيا، ويضيفا إلى حياتهما نكهة ما. يقول جَدِّي شيئًا ما، فتعارضه جدّتي، فيغضب، فتتظاهر هي بأنها مستاءة، فتنهض، وتذهب إلى المطبخ. إنّها تتدلّل، أوليست أنثى! كما قلت، لعبة. الإنسان يريد اللعب في كلِّ مرحلة من عمره؛ تذهب الفتوّة وتبقى الأنوثة.
كلما ذهبت لزيارتهما لاحظت أنهما شاخا أكثرَ، وأنّهما اقتربا من الموت أكثر، فأخاف وأحزن، ويخطر في بالي موتي أنا، فأغدو كالمجنون، وأحاول ألا أفكّر.
لقد أسهبت في الكلام، وأترك الباقي لوقتٍ آخرَ. إنه معيبٌ! لقد حدّثتك مُطَوَّلًا عن أقاربَ لي، وأعطيتك معلوماتٍ خاصّة بهم. إنّهم لا يعرفونك، لكنّك منحتني الثقة؛ ولذلك أبوحُ لكَ بكلّ شيءٍ.
أنت بعيد عنهما بصورة، أو بأخرى، وعلمك بما قلت لا يضرُّ! على كل حال. سأشرح لك عن أقاربي الآخرين حين يخطر ذلك على بالي في المكان المناسب من الحديث. وماذا سينفع ذلك!
كنت سأتكلم في مواضيع أخرى في الأصل. لقد ماتت بنت في مدرستنا اليوم، وكانت في مثل عمري، لقد ارتحلت في لحظة غير متوقعة أبدًا.
يقول بعضهم: «إنها انتحرت»، وبعضهم: «إنها كانت تستعمل المخدرات، وماتت من جرّاء جرعة زائدة منها». لست أعرف السببَ الحقيقيّ، ولا أعتقد أنّه مُهِمٌّ جِدًّا. لا أريد أن أكون مثل بعض الناس الذين يتحدّثون عن سبب الموت بدلًا من حقيقته.
هذه هي البنت الثانية التي تموت في مثل عمري، وكانت الثانية جارتنا، وقد حدّثتك عنها سابقًا.
لقد داخلني الخوف، وهزّ أعماقي، ومنذ وقت طويل لم يزرني. كنت مرتاحة، لكنني لم أعد أنام مُجَدّدًا، ومتى ما أغمضت عَيْنَيَّ خطر في بالي منظر يَدَيّ المتفسّختين في القبر، ووجهي؛ ستذوب هذه الأعضاء في التراب، كما تذوب حبّات السكر المَرْمِيّة في الماء.
آه يا يَدَيَّ آه! يداي المباركتان المرهفتان المدلّلتان اللتان لا تحتملان عَضّة ذبابة!
آه يا وجهي! وجهي الذي أحزن، ولا أريد رؤيته في المرآة بسبب حبّة!
كلُّ إنسان معرَّضٌ للموت في أيّة لحظة، وكذلك نحن ميّتون لا محالةَ في يوم من الأيام.
حسنًا، ما الموت؟ إنه مُفَرِّق. هو فراق يتكوّن من مجموع الفراقات كافة. حين يأتي الأجل، فإن الموت ينزل كسيفٍ صارمٍ يفصل الروح عن الجسد.
أنت تمضين، وكلّ شيءٍ باقٍ هنا. تبقين وجهًا لوجه مع إيمانك، وأعمالك.
آه من الموت! الطريق الذي لا عودة له.
في القبر يقلب الشخص نظره في عمره.

يحترق على أيامه التي مضت سُدًى.
يريد أن يضرب على ركبتيه بيديه، ويقول: «واحسرتاه!»
لكن، لا لسانَ يقول به «واحسرتاه!»، ولا يدين يضرب بهما ركبتيه، ولا ركبتين بعد الآن.
اليوم يوم الخيبة!

-27-

كان في الجنة شجرة، وكان الأكل من ثمارها ممنوعًا، فحاول الشيطان خداع أبينا آدم، لكنّه لم يفلح، لكنّه خدع لاحقًا أمّنا حواء، وهي بدورها أثّرت بزوجها. أكلا من ثمار الشجرة الممنوعة، فعاقبهما الله، فأرسلهما إلى الدنيا.
هل في الواقع ثمّة شيءٌ كهذا؟ وما تلك الشجرة؟ ثمّ ألم يكن الشيطان قد طُرد من الجنّة؟
لم يحدّثنا القرآن الكريم عن تلك الشجرة المُحَرَّمة وماهيّتها، ولم يقل السبب في ضرورة عدم الاقتراب منها. ليس في القرآن الكريم معلومات من قبيل: «حاول إبليس خداع أبينا آدم لكنّه لم يفلح، لكنّه خدع لاحقًا أمّنا حواء، وهي بدورها أثّرت بزوجها، وهَلُمّ جرّا.»
ليس شرطًا أن يكون الشيطان بجوار الإنسان ليزرع في قلبه بعض المعاني. ولكوننا الآن من مستعملي الشبكة، ففهم ذلك يسيرٌ جدًّا علينا.
مثلا يقوم رجلٌ ما في بلد قَصِيّ عنك بإنتاج (فيروس) ما، ثم يرسله بسرعة الضوء إلى حاسوبك، فيخرّبه، وهو جالسٌ في بلده دون أن يكون هناك داع لمجيئه شخصيًّا.
دعينا نأخذْ معلوماتٍ صحيحةً، ثم نتكلّم، فمعلوم أن آدم عليه السلام وزوجه حواء كانا يقيمان في الجنة، وكانت هنالك حدود لا يجوز لهما تجاوزها. وكان هذا الامتحان نموذجًا مصغّرًا عن امتحان الدنيا.
لا فائدةَ لنا في تفصيلات من قبيل «ما ماهيَّة الشجرة؟ وهل كانت مثمرة؟ ولماذا كانت فاكهتها ممنوعة؟ ومن بدأ بها أوّلًا «ونحو ذلك ممَّا لا طائل وراءه.
إن موضوع «الشجرة الممنوعة» قد يكون حتّى مجرّد إشارة تبيّن حدود المساحة المشروعة الممنوحة للإنسان.
إن الشأن الأساسِيَّ الواجب علينا معرفته هو الآتي: لقد حُرِّمَ على سيدنا آدم وزوجته شيءٌ ما.
لقد حسد إبليسُ الإنسان، وخالف أمر السجود له، وكفر، وقد شاهدا ذلك بأم أعينهما، وما كان عليهما أن يتجاوزا الحَدّ. كان الشيء المُهمّ تحريم الله، وقوله لهما لا تقتربا، ومنعه.
الدنيا هكذا أصلًا؛ يأمرنا الله فنفعل، وَينهانا، فننتهي. الأساس المهم هو الطاعة، والعبودية الخالصة هكذا.
ولا شكّ في أن هناك حِكَمًا كثيرة، وغاياتٍ وفوائدَ في الممنوعات. قد يكونٍ بعضها محفّزًا للإنسان. إننا مكلّفون باتّباع الأوامر، واجتناب النواهي، ولو لم نعرف شيئًا من فوائدها.

هبّ الشيطان إلى المعصية بالتفلسف، وتسيير المنطق، فجنى على نفسه، ولو استمع إلى الأمر أوّلًا، ثم سأل عن الحكمة منه لما كان هناك من مشكلة؛ لكنّه لم يصبر؛ لأنه حسد الإنسان، والحسد يقود إلى الحقد، والحقد يقود إلى التكبّر، والتكبّر يؤدي إلى المعصية.
إنه يريد أن يقودنا في الطريق نفسه!

-28-

في إحدى المرات من كلامنا قلنا:» النوم هو الأخ الأصغر للموت». وفي مرة أخرى نقلت لي القول: «النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا». يبدو لي أن هناك تناقضًا بين القولين.
ما شاء الله! ما هذه الدرجة من الدقة! نعم، لو تمّ النظر من الخارج لبدا أن ثمَّة تناقضًا، ولكنه في الأصل لا.
إن الحواسّ الخارجية، كالسمع، والبصر، والذوق، واللمس، والشمّ تتعطل في إثناء النوم، وتغوص الإرادة في أعماق النوم. ومن جهة أخرى، فإن العلاقة بين الروح، والجسد تبقى خارج الإرادة.
على أن نشاطات الذهن تستمر في الواقع؛ فترى الأحلام مثلًا، بيد أنّكِ لا تستطيعين أن تتدخّلي بإرادتك في مُجْرَيات الأحداث.
خلال الأحلام تبقى العلاقة قائمة بين الروح والجسد؛ لذلك تتألّمين وتستمتعين، لكن بشكلٍ آخرَ. تنامين، ولا تشعرين بما يجري من حولك، فأنت بِتِّ في عالمٍ آخرَ، إنه عالم الأحلام.
ويحدث الشيء نفسه في الموت الذي يشبه النوم العميق. لكنَّ أعضاءك الحسيّة تتعطل تمامًا هذه المرّة، وتنقطع صلتك بما يجري في الدنيا.
أصبحت في عالم مختلف تمامَ الاختلاف، لنُسَمِّهِ «عالم القبر»، أو «عالم البرزخ»، أو «عالم الأرواح». لا فرقَ في الأسماء، لكنه عالمٌ مختلفٌ.
تعيشين انقطاعًا أكبرَ، وبُعْدًا، وفراقًا.
فالتشابه الذي بين الموت، والنوم يكمن هاهنا في الفراق بين الروح والجسد المادي.
في الأول يكون الانقطاع جزئِيًّا، أمّا في الثاني، فهو تامٌّ. أحدهما صغير والآخر كبير.
وأما بالنسبة للقول: «النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا «. إننا نؤمن بالغيب، لا نرى ما خلف الستارة، ولا نسمعه. وحالنا هذه كحال النائم، وفي نهاية المطاف يأتي الموت، فتنجو الروح من سجن الجسد، ويغدو الجسد الذي جاء من التراب ترابًا، لكن الرُّوحَ تستمر في الحياة. كانت الروح هي ما يُقيم الجسد، فإذا ما غابت الروح تهاوى الجسد، وتحلّل.
والآن، فلننظر كيف يكون الانتباه حين الموت؟
حين كنت في الحياة الدنيا كنت تؤمنين بالملائكة من غير أن تريهم، وستكونين لحظة الموت وحيدة وجهًا لوجه مع المَلَكِ الذي جاء ليقبض روحك. سيقبض المَلَكُ روحك، ويقودها إلى عالم القبر، وثمَّة أناس يعيشون مع أرواحهم، كالمفاهيم التي في ذاكرتك.
لو رأيت فرضًا كلمة «إنسان» في صفحة ما، وقرأتها، ثم مسحتها. تمسح الكلمة التي تشبه الجسد لكنّ معنى الإنسان يستمر وجوده في ذاكرتك.
وهكذا بالموت أيضًا تتركين جسدك، لكنك تدركين لاحقًا أنّك ما زلت موجوة، ولم تصبحي عدمًا. «الإيمان بالحياة التي بعد الموت أساس الإيمان»؛ لذلك عند عَيْشِ التجارب ستبدئين بملاحظة الأشياء التي ما كنت تلاحظينها؛ مثل شروع الإنسان اليَقِظِ برؤية ما يجري حوله، وسماعه له، واستيعابه إيّاه، فالانتباه لكِ حين الموت!

كلما وقعت في ضائقة، وكلما بثثتك همومي، أسعفتني كالخضر. من حُسْن حظي أنك موجود. ولكن، ما معنى «تسعفني كالخضر»؟ إنه قولٌ مأثورٌ، هذا ما أعرفه، لكن ما أصله وفصله؟ من الخضر؟ وهل له علاقة بنا؟ وهل حقًّا يساعد مَنْ يقع في مواقفَ صعبة؟ أين يعيش؟ ماذا يأكل، وماذا يشرب؟

فكِّري في العالم قليلًا، ثمَّة حياةٌ في البر، وحياةٍ في البحر، وحياة في الجو. إنّ لكلّ شكل من هذه الأشكال خصائصَ خاصة به، وأوصافًا وحدودًا.

على سبيل المثال لا يستطيع الكائن الحي الذي يعيش على اليابسة العيش في الماء، والكائن الحي الذي يعيش في البحر لا يطير، ولا يمكنه البقاء محلّقًا في الجَوّ. يجب ألّا نستغربَ وجودَ أشكالٍ أخرى للحياة خارجَ مجال إحساسنا. يقول العالم الكبير «بديع الزمان النورسي»: إنَّ طبقات الحياة خمس. وضح هذا الموضوع بشكل جَيِّدٍ في كتاب «المكتوبات». وسألخصه باختصار: في الطبقة الأولى نوجد نحن، وحياتنا. لَا يمكننا أن نبقى من دون طعامٍ وشرابٍ ونومٍ، فهذه حياة مقيَّدة، ومحدودة، وتقلُّ هذه الحدود بالنسبة لمن يعيش في الطبقة الثانية، فهم يأكلون، ويشربون متى يشاؤون، لكنهم ليسوا مضطرين لذلك. وفي هذه الطبقة الخضر، وإلياس عليهما السلام.

يصل بعض الأولياء إلى هذا المقام عبر رحلة معنوية تسمَّى السير والسلوك، ويأخذون الفيض منهم.

الخضر من الممكن أن يُرى في عدَّة أمكنة في زمان واحد، ويستطيع -إن تطلب الأمر- أن يعيش حياتنا، مثلًا يمكن أن يأكل ويشرب.

أما أصحاب في الطبقة الثالثة، فيعيشون حياة تشبه حياة الملائكة، لهم أجساد نورانية لطيفة، وأجسام مثل الأشعة. وفي هذه الطبقة من الحياة عيسى وإدريس عليهما السلام.

يمكن أن تتساءلي: ما معنى العيش بأجسام لطيفة في السماء. لفهم هذا فكري في هذا المثال:

المادة التي تتكون من ذَرَّتَيْ هيدروجين، وذرة أوكسجين لها ثلاثة أحوال: الجليد والماء والبخار. إن ماهيتها واحدة بيد أن أوصافها مختلفة.

الجليد لا يستطيع الصعود، والبقاء على ارتفاع ألف متر، وكذلك الماء. لكن الجليد يذوب، ويتحول أوَّلًا إلى ماء، ثمّ إلى بخار، عندها يمكنه أن يصعد، وأن يبقى على ارتفاع آلاف الأمتار.

إذا نظرتم بمنظار هذا المثال يمكن أن تدركوا الفرق بين أبداننا، وأبدان تلك الذَّوات اللطيفة.

أما في الطبقة الرابعة، فثَمَّ الشهداء، إنهم يعيشون حياة مختلفة عن حياة الأموات الآخرين في القبور. لا يعرفون أنهم ماتوا، بل يؤمنون بأنهم انتقلوا إلى عالم أجمل؛ لهذا يقول الله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُفِيسَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌبَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ».

أما في الطبقة الخامسة، فهناك حياة للأموات العاديين، هذه حياة بلا بدن، وهم يعرفون أنهم ماتوا.

وقد قُدّم لسؤال «هل الخضر على قيد الحياة» نوعان من الأجوبة؟ فريق يقولون: «إنه ليس على قيد الحياة»، ويقصدون أنه لا يعيش في طبقة حياتنا. أما القائلون إنه «على قيد الحياة»، فإنهم يقولون: إنه ليس مثل بقية الأموات، وإنه يحيا حياة خاصة به. إن الخضر عليه السلام يمكن أن يظهر أمامك في لحظات حرجة، فإذا رأيته فلا تستغربي!

-30-

سألوا جحا: متى تقوم القيامة؟ فقال لهم: القيامة الصغرى، أم الكبرى؟ فقالوا باستغراب: أوَتكون القيامة صغرى، وكبرى؟ فقال: طبعًا، إذا ماتت زوجتي قامت القيامة الصغرى، وإذا مِتُّ أنا قامت القيامة الكبرى.

بعد هذا الكلام الطريف سأسألك أنا أيضًا: متى تقوم القيامة؟ وما معنى قيام الساعة؟ ماذا سيحدث؟

كان جحا حكيمًا مهمًّا يقدم الحكمة بقالبٍ من الطرافة، والناس ينسبون إليه كثيرًا من الطرف السخيفة، وإذا سألته، فمن المحتملِ أن يقول لك: أنا راضٍ حتى، ولو بمقدار زكاة الطُّرَف المنسوبة إليّ».

ثمَّة عالمٌ خاصّ في داخل هذا العالم العام. وإنَّ انهيار العالم الخاص بالإنسان بالموت هو القيامة الصغرى، وموت الكائنات هو القيامة الكبرى.

يجب على الإنسان أوّلًا أن يفكر بموته، بقيامته الخاصة به.

القيامة الكبرى هي كل الحوادث الكبرى، من قبيل خراب العالم والكون، وموت جميع الكائنات الحية، وبعثها من جديد. والله وحده يعلم متى ستقوم القيامة، نحن لا نعلم بالضبط متى ستقوم القيامة، فعلمنا محدود.

وما دام الله وعد بذلك، فسيفعل بالتأكيد، إن الله لا يخلف وعده، سينهار كل شيء ويفنى، ثمّ تُنشأ عوالم الآخرة؛ ستخلق أبدان للناس من جديد، وستبعث فيها الحياة، وتعود الأرواح إليها.

ليس ثمَّة أيّ سببٍ لرؤية ذلك بعيدًا عن العقل. في كل ربيع نرى أمثلة القيامة، الكائنات التي خربت، وانمّحت، وماتت في الخريف يعاد بناؤها من جديد في الربيع، فتخلق وتبعث. إن القدرة الإلهية التي خلقت كل الكون بتفاصيله الدقيقة، في نظام لا يستوعبه العقل، ووضعت في مركزه الحياةَ، لِم لا تستطيع أن تخرب كل هذا عندما يحين الأوان؟ لم لا تستطيع هدمه؟ ثم لم لا تستطيع تأسيسه من جديد؟

كنت قد قلت إن للكون عمرًا، حتى وفقًا للحسابات العلمية التي أجريت. كما يعيش الإنسان الذي هو العالم الصغير مدة من الزمن، ثم يموت، فإن الكون الذي يشبه الإنسان الكبير سيموت بعد أن يعيش عمرًا مديدًا.

لكن ليس من الواجب أن يكمل عمره الفطري، فوفقًا للأحاديث، فإنّ هذا الموت سيكون قريبًا جدًّا، إن الله إذا أراد لشيءٍ أن يكون هيّأ له الأسباب. فهو على كلِّ شيء قدير. «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

-31-

هل ثمّة علامات للقيامة، غير العلامات التي أخبرت بها الكتب السماوية، يمكننا إدراكها بالعقل؟ أي في هذه الدنيا.
لقد أخبر جميع المرسلين بالإجماع بالخبر نفسه، قالوا: سينهار العالم وسيؤسس عالم جديد. ثمّة آياتٌ تتعلق بالقيامة في القرآن الكريم، حتى إن اسم إحدى السور هو القيامة.
إن هذه الحادثة ممكنة عقلًا، فلنتأمل. مثل كل شيءٍ العالم أيضًا يخضع لقانون التكامل.
التكامل يعني التطور، وبلوغ الكمال، والتقدم نحو الاكتمال.
الكون مقبل نحو الكمال، في زمن من الأزمان كانت الدنيا قطعة من النار. ثم خلقت عناصر التراب، والماء، والهواء، بعدها أسكنت بالنباتات والحيوانات والإنسان، وصلت الكرة الأرضية بعد أن مرّت بأشكال مختلفة إلى مرحلة الرشد، والمرحلة ما تزال مستمرة.

إذا كان ثمّة تكاملٌ في شيءٍ ما، فلا بُدّ أن يكون هناك تطوُّرٌ، ونُمُوّ، وإذا كان هناك تطوُّرٌ، ونُمُوّ، فمن المحقق أن له عمرًا، وإذا كان له عمر، فإن له أجلًا مسمًّى، أي موعدَ الموت.
نستشعر عندما نتأمل ما يحدث في كلّ هذا الكون، في كلّ زمان أن المخلوقات التي تحمل هذه المواصفات لا يمكنها النجاة من يد الأجل، فعندما يحين أجلها ستُمْحى، وتزول.
انظري الآن إلى الإنسان، يكون رضيعًا أوّلًا، ثم طفلًا، ثم شابًّا، ثم كهلًا، ثم يصبح شيخًا. يكبر، وينمو، ويموت حين يأتي أجله.
الإنسان كونٌ صغيرٌ، ولا ريب أن فيه علامة تدل على عمر الكون الكبير وأجله، عندما يحين أجل هذا العالم سيموت.
تأمّلي الأشجار، تُخلق من بذرة، فتصير فسيلةً، وتتشعّب منها الفروع والأغصان، وتثمر، ثم تموت.
هذا الكون مثل شجرة، عندما يحين أجله سيتعفن، وينهار ويموت، وسينتج عنه عالم آخر. مثلما تنتج البذرة التي في داخل الثمرة شجرة أخرى.
تتبع جميع الكائنات في الكون قانونًا مشتركًا، ولا ريبَ في أن الكون نفسه سيتبع هذا القانون.

-32-

تقول إن الكون سيموت، وهل له حياة ليموت؟ ما معنى هذا؟
عندما تقوم القيامة سيكون بعض الناس على قيد الحياة، وبعضهم في القبور. حسنًا، إذا كنت في القبر أنا، هل أستطيع أن أرى القيامة؟ وهل سأتأثر من ذلك؟
سؤال أخير، بعض الناس مات قبل خمسة آلاف سنة، وبعضهم أيضًا مات قُبَيْلَ القيامة، أليس ثمّة ظلم من جهة مدة الانتظار؟
لا أقول أنا، بل الله يقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، والكون نفسٌ، ولا ريب في أنه سيموت. والموت الذي نتحدّث عنه هنا معناه الانهيار والزوال.
مثلما يخرب بيت، وينهدم ويسوّى بالأرض، سيخرب أيضًا قصر هذا الكون، بَقِيَ أن نقول إنَّ في الكون حياة، وحياة الكون هي عبارة عن مجموع الحيوات التي تتمركز في بِنْيَتِهِ.
وفرضًا لو صَغُرَ عالمنا، وصار بحجم ذبابة، كانت ستبدو آثار الحياة فيه.
وكنت قد قلت: يعدد العلماء العديد من الأسباب لهذا الموت الكبير. لكن السبب الحقيقي هو أمرُ الخالق.
لِم لا تستطيع الذات التي خلقت العالم من عدم، وأظهرت قوتها غير المحدودة بأفعالها أن تهدم هذا العالم بأمر؟ ولم لا تستطيع خلق عالم آخر؟
مع بدء قيام الساعة ستتصادم الأجسام في السماء، وسيتناثر الشرر، وتُفَتّت الجبال التي على وجه الأرض، وستشتعل البحار نارًا، وسيُدَمّر كل شيء.
بعد هذا الاختلال الكبير سيُفرق بين عناصر الجنة، وعناصر النار، وسيُؤسّس عالمٌ جديد.
أما المسألة الثانية نعم، الجميع سيتأثر من قيام الساعة، في القرآن الكريم دائما يرد الوعيد «لَتَرَوُنَّ» فلا شكّ في أن هذا الوعيد سيتحقق.
سيشهد الذين هم على قيد الحياة خراب الكون، لكن ستنزع أرواح المؤمنين قبل أن تبدأ الأحداث المروّعة، وسيشهد الكفار تلك الأهوال.
والذين في قبورهم أيضًا سيتأثرون من قيام الساعة، إن أجسام الأموات قد تعفنت، لكن أرواحهم تعيش في عالم البرزخ، الأرواح هناك تبصر، وتسمع وتعلم من دون أجسام.
ولكن حسنًا، كيف ستتأثر أرواح الموتى من قيام الساعة؟
فكري بنفسك، أنت في غرفتك الدافئة، وطعامك على المائدة، وتستمعين إلى الموسيقى، وكل شيء على ما يرام، ثم تنظرين من النافذة، الجو في الخارج شديد البرودة، والثلج يهطل، والرياح تعصف، وبعض الناس في الخارج يرتجفون من البرد. ممَّا لا شك فيه أنك ستتأثرين من المنظر الذي رأيتِهِ، ولا يمكنك أن تقفي مكتوفة اليدين تِجاه ما يحدث للناس في الخارج. هكذا ستتأثر أرواح الموتى من أهوال قيام الساعة، لكن شدَّة تأثيرها سيكون متناسبًا مع الوضع الذي نالته من حساب القبر، بعضها سيبهت، ويعذّب، وبعضها سيشاهد بدهشة، وبإعجاب الفعل الخارق لرَبّ العالمين القدير.
أمّا فيما يتعلق بمسألة الانتظار، أنت تحسبين هذه المدة بمقاييس الدنيا، بيد أن مقاييس الدنيا ستبقى في الدنيا.

وأنتِ إذا فكرت في زمن الحلم، ستفهمين هذا بشكل أفضل، تعرفين أن أطول رؤيا إنّما تستمر لمدة ثوانٍ معدودات، لكنها تتضمن العديد من الأحداث، وإن هذه الأحداث لو كانت في عالم اليقظة من المحتمل أنها ستستمر أيامًا وأسابيعَ، بل وربّما سنوات.
باختصار الزمن نسبيّ، عندما يعيش اليَقِظُ دقيقةً، فإن النائم يمكن أن يعيش ألف دقيقة، هكذا سيكون تلقي الزمن عند أهل القبور.
إن مدة الانتظار للمؤمنين قصيرة جِدًّا، وستكون طويلة جِدًّا للكافرين والمذنبين الذين يعانون عذاب القبر.

أنا في القبر والقيامة قامت، وانهار العالم، ومات جميع الناس، فماذا بعد؟ كيف سيكون البعث؟ ما الذي ينتظرني؟
بعد قيام الساعة تُخْلَقُ أجساد من جديد للأموات، ويعودون إلى الحياة من جديد. وتعود كلّ روح إلى بدنها.
يجتمع جميع الناس في المحشر، ويحاسَبُون، ويُعرف أصحاب النار وأصحاب الجنة، ويُرسل كلّ إنسان إلى وطنه الأبَدِيّ.
هناك ثلاث مراحل في مسألة البعث؛ إنشاء الأجساد، وبثّ الحياة فيها، وإعادة الأرواح إليها. لا شيءَ من هذه الأشياء صعب على الخالق البارئ الذي خلق الكون من عدم. لم لا يستطيع مَنْ خلق الإنسان من عدم أن يفعل ذلك مرة أخرى؟ ما المانع من ذلك؟ هو الخالق البارئ، هو نافخ الروح، من فعل ذلك مرة واحدة، لا شك في أنه يفعله بسهولة في المرة الثانية. أضيفي إلى ذلك أن لهذا البعث أمثلة في الحياة، إذا نظرتِ بتمعُّن فسترينها.
يأتي الخريف، وتتساقط أوراق الأشجار، ويمتلئ سطح الأرض بالهياكل، تجفُّ النباتات، وتتعفّن وتتحوّل إلى تراب.
تبقى البذور، والحبوب مثل العظام، ثم يأتي الشتاء، وترتدي الأرض كفنها الأبيض، ولا يبقى أثرٌ من الحياة.
انظري إلى هذه الأشجار في الربيع تَرَيْها قد اخضَوْضَرَتْ، وتزيّنت بالأزهار الملونة، وبالثمار اليانعة.
إن الذات التي قامت بهذه الخوارق كأنها تقول: انظروا وشاهدوا وافهموا، كما خلقتها من جديد، فإنني أستطيع أن أخلق أبدانكم من التراب من جديد.
وهناك أمثلة على بَثّ الحياة في الأجسام، لو أننا نستطيع تغذية كل المصابيح في العالم بالكهرباء من مصدر واحد، لأمكننا تفجير مليارات المصابيح بضغطة زرّ واحدة، وفي زمن واحد. إن الكهرباء ما هي إلّا مخلوق من مخلوقات الله الذي ليس لقدرَتِه حدود، خلقها، وسخّرها لنا.
إذا كانت هذه الخاصية في مخلوق من مخلوقاته، فلِمَ لا يستطيع بأمر منه أن يهب الحياة لكلّ الأبدان؟
في نهاية المطاف دعينا ننظرْ في مسألة عودة الأرواح إلى الأبدان، تخيّلي أن هناك جيشًا منظّمًا، أفراده مدرّبون، وكلُّ فرد فيه يعرف قائده، وزميله وفرقته. إن جمع هؤلاء الأفراد المتفرقين للاستراحة يمكن جمعهم بصوت بوق. كذلك الأرواح التي تنتظر القيامة في قبورها يمكنها العودة إلى أبدانها بصوت بوق بأمر الله.
إن هذا البوق الذي يُطلَق عليه «الصور» في يد «إسرافيل» عليه السلام، ما أن يُنفخ فيه بأمر الله حتى تلبّيَ الأرواح نداءه طائعة. يذكرنا القرآن الكريم بالنشأة الأولى؛ لكي نستطيعَ أن نستوعَبَ النشأةَ الثانيةَ.
لقد خلق الله أبداننا وسوّاها في أرحام أمهاتنا من ذرات متشكلة من أغذية متعددة بشكل يفوق قدرة العقل. ومنح هذا البدن الحياة والروح، إن الخلق بعثٌ.

عندما نرى بأعيننا العديد من الموتات، والإحياءات، والحشر الصغير، فإن التفكير بالبعث بعد الموت ينبغي ألّا يكون بعيدًا عن عقل الإنسان، أو مستغربًا؟ إن القدرة التي أحيتْ في الربيع الأحياء التي ماتت في الشتاء لا شكّ في أنها ستحيي الموتى في القبور يومًا ما.

أمي تمرّ بأزمة نفسية، تُغيّر لون شعرها على نحو متكرر، وتبذل جهدها ليبدو جلدها مشدودًا وخاليًا من التجاعيد، لكن لا فائدة، فالشيخوخة بدأت بالظهور، وهي تتقدّم بسرعة، تألمت وأنا أشاهد ذلك، كنت أرغب في معانقتها بيد أني لم أستطع. ستذهب بها رياح الأجل، كل شيء يشيخ ويموت، الناس والحيوانات والأشجار والأبنية، وحتى العالم نفسه.

فكرت، لو لم تكن هناك حياة أبدية، فإن الحياة في هذه الدنيا ليس إلَّا مأساة.

أعرف أنّه يتوجّب عليَّ أن أقف بجانب أمي، لكنني لست جيدة، فأنا صامتة في البيت منعزلة مع نفسي منزويةٍ في غرفتي، لا أستطيع أن أهتمَّ بأمي وأبي وإخوتي، وأظهر لهم حبي كما ينبغي، وهم أيضًا يتأثرون من حالتي الروحية المتأزّمة، لقد فقدت فرحة الحياة.

«فرحة الحياة»، لا أعرف كيف نطقت هذه الكلمة، أعتقد أنهَ من تأثير الإعلام. أريد أنا أبقى معافاة مفعمة بالحياة وساكنة، لا أخرج من البيت أحيانًا، لا مقهى، ولا سينما، ولا معرض، ولا أي شيء، لا أستطيع أن أستمتع بأيِّ شكل، أعود إلى البيت، وقد تعبت روحي أكثر.

الآمال طويلة، والأعمار قصيرة، والتوقُّعات كبيرة، والدنيا صغيرة، الرغبات واسعة، والأرض ضيقة، من الواضح أن الإنسان لم يُخلق من أجل هذه الدنيا فحسب.

إن الروح تشتاق إلى بارئها، ولا تستطيع التنفّس، والاحساس بالأمان إلَّا معه. ارفعي رأسك في ليلة من الليالي، وانظري إلى السماء، فكري فيمن جعل السماء المزينة بالنجوم سقفًا لقصر الدنيا، ثم اذهبي إلى ساحل البحر، وشاهدي الجمال العظيم في مياه الأمواج المتلاطمة، واستمعي على مشارف غابة لعزف الرياح، وحفيف أوراق الأشجار، وتغريد الطيور.

السماء مليئة بأعين النجوم، الأرض مزينة بألحان متنوعة، معناها واحد وإن اختلفت ألفاظها، كلّ شيء يسبّح بحمده.

اشعري في رأسك بيد الرحمة التي وراء هذه الأصوات، والمناظر والروائح، عندها تنمحي الظلمات التي تحيط بروحك، وتتحول الأبدان القاسية إلى أنوار.

يترك ألم الفراق مكانه للنشوة الصافية، وتتحوّل نيران الشوق إلى حديقة ورد، وتُضاء الظلمات.

نفسك ستقاوم، وتستمر بالتذرُّع، وستجرب كلّ الطرق حتّى لا تستسلم.

حسنًا، لكن إلى متى؟ هل ستهدأ هذه الآلام من دونه؟ لا يهدأ هذا الاضطراب، ولا تنتهي هذه الأزمة النفسية ما لم نتّجه إليه.

إن الذي وهبك الحياة يريدك، علاج مرضك ينتظرك، إنه هو الذي سيمنح روحك روحًا.

اقتلي نفسك المقاومة، وتخلّصي من زنزانة «الأنا» هذه، وكوني حرة بالإيمان. اتجهي نحو ربك، وارفعي يديك وقولي: اللهم إني أبوء بذنبي لك، وجهت وجهي المظلم نحوك، ومددت إليك كفَّيَّ المتَّسِخَتيْن بالذنوب، وإن لم أكنْ أستحقّ هذا. لكن كما أنك إلهي، فأنت إله ذنوبي، جئت بابك راجية. ليس عندي رأسمال إلَّا التقصير، ولا وسيلة إلّا الذنوب.

نطلب الإحسان للناس، اللّهم امنح الطمأنينة للأرواح القلقة، والحب للقلوب الخالية من الحب، والنور لمن في الظلمات، والشعور لم فقد الطريق، ونفسك لمن هم بدونك.

سيُنْصَب ميزانُ يوم الحشر، ستوزن فيه أعمال الخلائق، وسيُساق الذين ماتوا، وهم كفار والذين أذنبوا إلى جهنم، وَيْلي على مَنْ هم مثلي!
نعم، ستُوزَنُ السيئات، والحسنات في الميزان، ويُنظر إلى الراجح. إذا رجحت كفة الحسنات، فإنك تعدّين عبدة صالحة، ولا يُنظر إلى ذنوبك بعد ذلك، وإذا رجحت كِفّة سيئاتك، تحول الرحمة الإلهية بينك وبين النار، وتسعفك شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإذا كانت ذنوبك أكبر، فستعاقبين على قدرها لا زيادةَ، ولا نقصانَ، السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أو مئة أمثالها، وتصل في الليالي المباركة إلى ألف حينًا، وعشرة آلاف أحيانًا، وأحيانًا حتى ثلاثين ألف ضعف.
وباب التوبة مفتوح دائمًا، وكما في الحديث: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ». لقد عشت سنوات بلا إيمان، وارتكبت المعاصي، وامتلأت دفاترك بالذنوب الكثيرة، بعد ذلك بشعور بالندم، وتوبة ودمعة عين تنمحي جميعها.
إن الأمراض، والابتلاءات، والمصائب، وحرقة القلوب، والخوف، والألم قبل الموت تكون وسيلة لغفران الذنوب. إن كل ذلك يظهر لنا أن الجنة هي إحسان إلهي.
لقد وضعت العديد من العوائق؛ كي لا يدخل الإنسان جهنم، إن الذهاب إليها صعب، لكنك ترين الإنسان ينجح في ذلك. كان من الممكن أن نفهم سببَ الذهاب إلى جهنم لو كانت الحسنة بمثلها، والسيئة بعشرة، أو مئة، أو ألف أو ثلاثين ألفًا.
ولو أن باب الرحمة أغلق، ولو أن المنكرين لا يمكنهم أن يؤمنوا، ولو لم يكن العفو الإلهي ولم تكن الشفاعة لكان من الممكن أن نفهم هذا. أحيانا ربك لا ينظر إلى عدد ما تقومين به، ويمسح كل الآثام بسبب عمل يرضيه. ويجعلك من عباده الصالحين.
أصعب ما في الأمر الموت من دون إيمان، لكنَّ الكافر ليس له أمل لا في عفو الله ولا جنته. من كان عنده ولو ذرة من إيمان، فسيدخل الجنة عاجلًا، أو آجلًا، أما من حُرِمَ نعمة الإيمان، فسيخلّد في العذاب، يا له من خسران عظيم!

-36-

تقول كولاي: «أنا عصبية، بِنْيَتي هكذا؛ لذا ينبغي التسامح مع أخطائي، ويجب أن يكون الحساب في المحشر وفقًا لذلك» هل حقًّا ستُعطى امتيازات لهؤلاء؟
لا يستطيع أحدٌ من الناس أن يخلِّصَ نفسه من العقاب يوم الحساب بقوله أنا عصبي. ولا سيَّما أنه في المحاكم الدنيوية لا تعتبر العصبية من الأسباب المخفّفة للعقوبة. هكذا الإنسان، لا يريد أن يتحمَّل جريرةَ عيوبه. ويتذرّع بشتّى الذرائع؛ لكي يخلص نفسه. يمكنك أن تضعيه بجانب من هم أكثر عصبية. مثلًا بعضهم أجمل، وبعضهم أقوى، وبعضهم أجرأ، وبعضهم أولع، وبعضهم أذكى.
هذه المواصفات سيوفٌ حادّةٌ، يمكن أن تخضع لأمر الحقّ كما تعطى للأمر بالباطل. إنَّ قوة الآلة التي في يد الإنسان لا تخلّصه من المسؤولية، بل على العكس من ذلك تزيد مسؤوليته، فالإنسان لا يكلَّف بأشياءَ صعبة لا طاقة له بها، فلا يمكن لمُنْصفٍ أن يقول: لقد حملت عبئًا لا أطيقه؛ لذلك لم أستطع حمله، فوقعت في المعاصي.
إن الله عادلٌ، ولا يظلم أبدًا، ويسأل كلّ إنسان بحسب قدراته، إن امتحانه لا يشبه امتحان الدخول إلى الجامعة. إنه سبحانه أفضل مَنْ يعرف أوضاع الجميع، وقدراتهم، وبيئتهم، وشخصياتهم، وماذا فعلوا؟ ولماذا؟ وماذا كسبوا؟ ومن أين؟
لقد أحاط العلم بالكون كله، مثلما تحيط أشعة الشمس بالأرض، وما دام الأمر كذلك، فما مِنْ سببٍ للإحساس بالقلق في هذا الموضوع. ويجب أن نثق بعدالته، ورحمته، وحكمته.
لكلِّ فردٍ امتحانٌ خاصٌّ به، من الممكن أن تكون بعض أسئلة هذا الامتحان أصعبَ من غيرها نسبيًّا. يقول الأساتذة في المدارس كما تعرفون: إن لهذا السؤال 50 درجة. وهذا الأمر أيضًا هكذا.
من الممكن أن تكون العصبية أصعبَ أسئلة الامتحان، إذا أعطيت الإجابة المطلوبة، فإن الجائزة التي تُمنح ستكون كبيرة بالنسبة نفسها. يُجتهد أكثر للأسئلة الصعبة. هكذا أيضًا ستفعل كولاي، وستبحث عن حلول لتسكين عصبيتها. وستغيّر عاصفة الروح هذه الاتّجاه نحو أهداف إيجابيّة. وستتعلم الصبر، وتهدئة نفسها، والابتعاد عن الشجار. وستبحث عن وسائل لكبح جماحها وستجدها. ولأجل هذا ستحارب نفسها حربًا ضروسًا.
ثمَّة ملاحظة تحيّرني، سأذكرها ليتمّ بها البحث، هل انتبهت؟ الكلّ يتحدث عن الامتحان، لكن لا أحدَ يرى الحوادث، والناس في الحياة اليومية كمكوّنات تشكّل الامتحان. إنه ينتظر أشياءَ واضعًا أجزاءَ الحياة التي هي أسئلة الامتحان بين قوسين. لكنَّ في الحقيقة إنَّ كلّ إنسان يقابلنا، وكلّ حادثة نمرُّ بها سؤال امتحاني.

-37-

قدري طفلٌ يتيمٌ في الثانية عشرة من عمره، ماتت أمه بمرض السرطان، تدمع عيناه كلّما فُتِحَ موضوع الأمّ. أظنُّ أن إيمانه تأثر من هذه الحادثة المأساوية، أحيانًا يتمرّد، وأحيانًا يتكلم كمؤمن كامل الإيمان. يريد أن يزور قبر أمه أيام الآحاد.
سألني: أتأتين معي؟ قلت نعم، وأنا قلت لبقية أصدقائه، وقررنا الذهاب جميعًا معًا.
قالت سراب: أنا آخذ سيارة أبي نذهب بها. تقودها من دون رخصة قيادة. ذهبت بنا، وهي حريصةٌ على ألّا تراها شرطة المرور.
أتصدقون؟ أنا لم أذهب من قبل إلى المقابر أبدًا. كنت أراها من بعيد. عندما دخلنا قرأت عبارة: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، وتحدّثنا عن هذه الآية. تأثّرت ولم أتمكن من ضبط نفسي، فبكيت.
عانقتني بريل، وقالت كلمات للترويح عني. سراب وكوراي ساكتان، أظن أنهما لا يعرفان ماذا يقولان، ولا كيف يتصرّفان.
وضع قدري الزهور على قبر أمه، ونظف الزهور الجافة، ومسح القبر بمنديل معطَّر. كانت قد رسمت على شاهدة القبر صورة وجه أمه في إطار بيضاويّ بالأبيض والأسود، عندما رأيتها بدأت بالبكاء مرة ثانية، في تلك الأثناء قطعت على نفسي عهدًا بأنْ أعانِقَ أمّي عندما أصلُ إلى البيت.
استمرَّت زيارتنا ما يقارب الساعة، بعد ذلك أوصلنا قدري إلى بيته، ذهبنا أنا وكوراي وسراب وبريل إلى أحد المقاهي.
قال كوراي بفجاجة: لا أستطيع بشكل من الأشكال أن أفهم مسألة زيارة القبور هذه، فالميت لا يعلم بذلك، ولا يشعر.
استشطتُ غضبًا، وكنت على عجلة من أمري، بدأت قائلة: كنت سأستغرب لو فهمت. ولم أترك شيئًا، ولم أقله. لم تقصر سراب أيضًا. ولو لم تغلق سراب الموضوع لطال النقاش.

في الحقيقة أحبُّ الجدال، بيد أن عندي طبعًا سيّئًا، وهو أنّي أغضب، وأبدأ الكلام متجاهلةً قواعد المنطق.
وأنت هل تجادل أحيانًا؟ آخِرُ مرّة مع من جادلت؟ ومتى؟ ولماذا؟

وأنا أيضًا كنت أجادل في الماضي، لكنْ مع الزمن أدركت حقيقة أنه لا يوصل إلى نتيجة بالجدال، فجهد البحث عن الحقيقة يتلاشى، ويترك مكانه للرغبة في الانتصار، فالطرفان يعملان على إلحاق الهزيمة بكلٍّ منهما، بل حتى سحق كلاهما الآخر.
عندما يطول الجدال تشترك الأنفس فيه، ويتحوّل الأمر إلى عناد، ويختلط الحابل بالنابل، فلا يُعْرَفُ المُحِقّ من غيره. أفضل شيء الكلام الجميل، مثل مسافرين يمشيان سويًّا يبحثان عن ماء. أنا تبنّيت هذه الطريقة، أحاول إقناع مخاطبي، لكن إذا بدأ بالعناد أنهي الكلام معه. كان آخر نقاش دخلته مع نوع من الناس يطلق عليها علماء النفس «المتفائل الشعبي». في المجتمع يوجد مثل هؤلاء الناس. يحبون أن يتركوا أثرًا على الناس الذين يتعرّفون عليهم. يستعمل الوسط الذي يدخله كخشبة المسرح، ويمثّل مسرحية فردية، يفرغ كل ما لديه من تراكمات من أجل جذب الأنظار إليه. يتحدث متعاليًا، ويتعالم. الرجل الذي تجادل معي كان من هذا النوع، كان يتحدث بشكل متواصل، وحديثه عبارة عن استطراد طويل. كان يتحدث في مواضيع دولية، ويطلق الأحكام كأنه خبيرٌ فيها، ويفتي في المواضيع الدينية، ويحل كلّ مشكلات الأدب بخفقة واحدة.
أردت الحديث قليلًا بيد أنه لم يُتِحْ لي الفرصة، قطع كلامي بقوله: أنت مخطئٌ. حاول دحض مقولتي بتقدّم ما يعتبره أدلة، أنا وجدت نفسي مجبرًا على الدفاع عن نفسي، أدركت أنه كان يفكر في كيفية الإجابة عمّا أقول بدلًا من الاستماع لكلامي، فسكتُّ ولم أتكلّم مطلقًا.
أغتنم الفرصة هنا لأقصّ عليك قصة، ونحن نتحدث عن الكلام، وعن الخطاب بحسب المخاطب، كنت قد قرأتها في مكان ما، وتأثرت بها:
صادف أحَدُ الحكماء في أثناء تجواله في الريف مخيّمًا للغجر، فجاء إليهم وسلم عليهم، وسألهم عن حالهم، ردّ الغجر السلام عليه، وأظهروا الاحترام لهذا الرجل الذي اهتمّ بحالهم، هذا الحكيم كان يتقنُ فنَّ خطاب الناس على قدر عقولهم ويطبّقه، ففي أثناء حديثه العابر معهم قال لهم: « يا إخوتي، إنكم أدركتم أنكم عابري سبيل في هذه الحياة الفانية، ترون أن هذه الحياة القصيرة لا تستحقُّ أن تبنوا من أجلها بيوتًا، تعيشون في بيوت متنقلة، فإذا قمتم بشيء آخر فأدّيتم الفرائض، واجتنبتم الكبائر من الذنوب، فإنكم تنالون الجنة، والسعادة الأبدية.»
تأثّر الغجر من كلام الحكيم الذي أنصتوا إليه بدِقَّة، وأظهروا له المزيد من الاحترام.

أنت لا تشاهد التلفاز، ولا تقرأ المجلات. من المحتمل جدًّا أنّك لم تسمع بهما، لقد وقعَ زلزالٌ في إحدى بلدان المسلمين من جديد، فمات آلاف النّاس.
بعض العلماء المُعلّقين في التلفاز قالوا عن هذه الكارثة إنّها «عقابٌ إلهيٌّ»، فتشكّلت في ذهني العديد من الأسئلة.
من أين علموا قدرَ الله؟ لماذا لا يُعاقبُ عديمو الإيمان، والعُصاة، والمُذنبون فقط؟
من المؤكّد أنكم سمعتم بما يذكره القرآن الكريم عن بعض المجتمعات القديمة التي أُهلِكت بسبب عصيانها. بعضها بالعواصف، وبعضها بالطوفان، وبعضها بالزلازل.
لعلَّ بين المصائب، والعصيان علاقة عميقة.
لماذا لا يكون المبدأ الذي كان فاعلًا، وساريًا في الأقوام القديمة فاعلًا في المعاصرين أيضًا؟ القرآن الكريم لا يذكر لنا تلك الأحداث كوثيقةٍ تاريخيَّة فقط، بل ليعطينا عبرة ودرسًا.
أما فيما يتعلّق بسؤال «من الذي يمكنه الإلمام بنِيَّة الله؟» فمن المؤكّد ألّا أحدَ يمكنه ذلك. إلّا إذا كان الله قد أعلمَ بها.
حسنًا، وهل أعلم بها؟
نعم، ولمرّات كثيرة. فهو يُحذّر بشدّة من العصيان.
والآية تقول: «وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».
لهذا السبب يُعلّقُ بعض العلماء بهذا الشكل. غير أنّ هذا النوع من التعليقات يجب أن يكون منضبطًا. فالمُعلّق يجب عليه ألّا يقول كلامًا يوحي بأنّه يُبرّئ نفسه، ويُدين المنكوبين بالزلزال.
هذا ما تتطلّبه اللّباقة على الأقلّ. فالمسلم النّاضج يبحث عن سببِ المصيبة في نفسه.
حسنًا، لماذا لا يُعاقبُ عديمو الإيمان، والعُصاةُ والمُذنبون فقط؟
افرضي أنّه لم يعاقب سوى العُصاة، حينها لن يكون للامتحان سرٌّ، فالجميع سيكون عليهم أن يؤمنوا، شاؤوا أم أبوا. والحالُ أنّ الدنيا دار امتحان، فيها يُبتلى الإنسان. يجب أن يُتاح له استخدام عقله، وألّا تُسلبَ منه إرادته، ولو حصلت إشارات واضحة بالقدر الذي يسلبُه إرادته لما بَقِيَ أيُّ معنًى للامتحان.

الناس موجودون على الأرض منذ آلافِ السنين. مات منهم المليارات، وسيموت المعاصرون أيضا.
حتّى أنّ عظام أولئك الميّتين تحوّلت إلى رميم، وانتثرت. منها ما نخرته البكتيريا، ومنها ما احترق، وأصبح رمادًا. كيف لهذا العدد من الناس أن يُبعثوا؟ كيف سيصبحون أُناسًا من جديد؟ إنّه أمرٌ لا يقبله العقل.
خَلْقُ جميعِ الأبدان من جديد، وبثّ أرواحها فيها، ثمّ جمعها كلّها في أرض المحشر! إنّها فعلًا أحداثٌ عظيمة! وبعض الناس يجدون صعوبة في قبولها ويرونها بعيدة عن العقل.
السبب في ذلك هو عجز الإنسان، فهؤلاء هم ضحايا لقياسٍ خاطئ. إذ يحاولون أن يتمثّلوا بعثَ العديد من الناس بالقياس على قواهم، وإمكاناتهم هُم، فلا يقدرون.
يُطبّقون منطقًا عليلًا مفادُه أنّه: «إذا لم يقدروا هم على ذلك، فالأمر غير ممكن».
حتّى في السابق كان الأمر هكذا. فعندما تحدّث القرآن الكريم عن الأقوام المُهلَكين ذكر أيضا إنكارهم للبعث، والمشركون في أيام نبيّنا- صلى الله عليه وسلم- سألوه: «مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»، فنزلت في ذلك آية:
«قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».
لقد رأيت في وقتٍ ما مَنْ يُنكر الوصول للقمر بمنطقٍ عليلٍ مفادُه أنّه: «إذا لم يقدر هو على ذلك، فالأمر غير ممكن»، والذين ينكرون البعث، ويرونه بعيدًا عن العقل يقعون في الخطأ نفسه، فالعقل البشريّ محصورٌ بزمانه، وبما يمكنه أن يلمّ به. وهذا هو السبب في أنّ الأمور التي لو قيلت بالأمس كانت بعيدةً عن العقل أصبحت اليوم هي نفسها- حقائق عاديّة.
لو حَدّثنا أُناسًا من الماضي عن الهاتف، فأخبرناهم بأنّه سيكون بإمكانهم الحديث مع أشخاصٍ في الطرف الآخر من العالم باستعمال آلة في حجم كفِّ اليد، وسيكون بإمكانهم رؤيتهم، فإنّ بعضهم سينكرون وسيكذّبون ذلك بالتأكيد.
لا أقصد هنا أنْ «نصدّق كلّ ما يُقال بلا سؤالٍ ولا رَوِيَّة»، بل أشرحُ كيف أنَّ العقل القاصر، والمعلومات الصادرة عن الحواسّ ليست هي المعيار الوحيد.
نعم، العقل المنصف إذا تأمّل في آثار الله الرّائعة في الأرض يُدركُ أنّ خالقها لا حدَّ لعلمه، ولا لإرادته، ولا لقدرته.
إنّ الله الذي خلق الكائنات من العدم يمكنه بلا شكّ أن يبعث الناس من جديد يوم القيامة.
يُسمَّى ذلك «حشرًا» بلُغة الإيمان. والحشر هو بعث الناس وجمعهم. أمّا المحشر، فهو مكان الاجتماع، وفي أرض المَحْشر تُعقدُ محكمة كُبرى. وهناك يُسأل الجميع عمّا صنعوا، وفعلوا، ثمّ تصدُر القرارات بحقّهم.

-41-

في صباح اليوم اتّصل بي قدري، وقال: «إمّا أن تأتي أنت إليّ، وإمّا آتي أنا إليك. أنا في وضع سيّء جدًّا». كان يتكلّم وهو يرتجف.
قلت له: «ما الذي حصل؟»
فقال: «من الصعب الحديث بالهاتف. يجب أن نتكلم وجهًا لوجه».
قلتُ: «طيب، تعالَ أنت ما دام الأمر كذلك. أمي وأبي ليسا هنا. صَفَا فقط هنا، ولن يزعجنا».
قال: «سأكون هناك في غضون نصف ساعة».
قلت: «أنا بانتظارك. وفي الأثناء سأُعدّ الشاي».
بمجرّد قدومه بدأ في الكلام.
«في الليلة السابقة رأيت أمي في المنام. كُنّا في سهلٍ واسعٍ مكسوٍّ بالعشب وفيه بعض الأشجار المتناثرة. لاحت أمّي من بعيد، فبدأت بالركضِ باتجاهها فَورًا. لكنها أدبرت عني، وبدأت في المسير.
لم أتمكن من اللحاق بها مهما أسرعت في الركض، كنت أجري، وأنا أقول: «انتظري يا أمي، لقد اشتقت إليك كثيرًا»، ثم استيقظت من دون أن ألحق بها، فشعرت بغُصَّةٍ في داخلي. لقد تألّمت من أعماقي؛ لأنني لم أتمكن من معانقتها، ولو في الحلم».
كان يجد صعوبة في إمساك نفسه عن البكاء، وهو يتكلّم. وفي النّهاية لم يصمُد فانطلق باكيًا، أعطيته منديلًا، وكلّمته بكلماتٍ تواسيه حتّى سكَن. ثم وضعت أمامه كوب شاي، فسألني: «هل لهذه الرؤيا تعبير حسب رأيك؟».
قلت: «أنا لا أعرف تعبير الرؤى. لكنني يمكن أن أخبرك بحدسي. يبدو أنّ شوقك لأمّك انعكس في حلمك. أتمنى أن تلقاها في رؤيا أخرى، وتعانقها».
قال: «أنت تعرفين أنني أجد صعوبة في الإيمان بالحياة بعد الموت. بعد هذه الرؤيا فكّرت في موضوع البعث من جديد، أرغب في الإيمان، ولكنني لا أستطيع أن أؤمن كما ينبغي، لَدَيّ شكوك»!
فأخبرتُه عنكَ وهو يعرفك أصلًا- فقال: «حسنًا، اسأليه إذًا، وأخبريني بجوابه».
قدري شخصٌ طيّب، وحسّاس جِدًّا. أرى أنّ علينا مساعدته. سأسألك بعض الأسئلة عن البعث بعد الموت.
هل هناك يا تُرى أدلّةٌ توجِبُ البعث بعد الموت؟ ولماذا سيتمّ البعث بعد الموت؟ أعطني إجابات مُقنعةً حتّى أذكرها له؛ لأنّني محتاجة -أكثر من أي وقت- لمنهجيّة الانطلاق من المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول.
أنت تعرف أنني وقدري قد درسنا العلوم التجريبيّة. فالتجربة والملاحظة لهما مكانة مهمّة في عالمنا الفكري. علينا أن نقتنع بأدلّة قويّة حتّى نؤمن بالشيء حقّ الإيمان. وأنا أرى أنّ هذه المَيْزَةَ موجودةٌ لدى جميع من يعيشون في دُنيانا اليوم بدرجاتٍ متفاوتة. مجرّد الكلام لا يكفيهم؛ لأنّهم يريدون أدلّة على ذلك. فرجال العلم يمارسون تأثيرًا على الأذهان ويفرضون شروطهم.

أريد منك أن تحدّثني عن هذا الموضوع بشكلٍ مفصّل. لا تفكّر في أنّني سأمَلّ؛ لأنني لا أملّ.

يتألّمُ كثيرًا مَنْ لا يؤمن بالحياة الأبدية كما ينبغي؛ لذلك يجب التخلّص من الشكوك، وتحقيق الإيمان من أجل الوصول إلى طمأنينة الروح.
أنا أفهمك، فأنت تبحثين عن دليل. حسنًا، سأشاركُك ما أعرفه، لكن قد لا تكفي المعلومات من أجل الإيمان. فقد سبق أن قلتُ إنَّ الإيمان مسألة قبول، وهو توجّه القلب نحو الحق. إنّه نورٌ يُقذف في القلب عند استعمال الإرادة بطريقة إيجابية.
إنَّ الأدلّة والبراهين تكون من أجل إزاحة العقبات الماثلة في طريق من توجّه صوب الإيمان. ومن لم يُرد التوجّه لا يفيده دليلٌ ولا حجّة. حتّى إذا طُرحت أكثر الأدلّة منطقيّة ومعقوليّة، فإنّ مَنْ لا يُرِدِ الإيمان لن يقتنع بها.
والقرآن الكريم الذي هوَ دليلنا، ومرشدنا في كلّ الأمور يعرضُ بعض الأمثلة عن البعث بعد الموت، فيُعِدُّ القلب للقبول، والعقل للتسليم. وبذلك يثبت لنا أنّ الذي سيبعثنا من جديد هو «ذو الجلال» الذي يعلم كلّ شيء ويقدر على كلّ شيء.
إن الدنيا مليئةٌ بنماذجَ عن القيامة، والبعث، والمحشر، يكفي فقط أن تعرفي كيف تريْنَها.
انظُري إلى الربيع! عندما يحلّ زمانهُ، فإن فصل الشتاء يأخذ عواصفه وبرده، وثلوجه، وينصرف. ثمَّ تصحو الأرض، وتلينُ وتتفتّح. كما أنّ الأشجار الجافّة تدبّ فيها الحياة مع الماء.
تتفتّق البذور، ويتشقّق البيض، فتخطو الكائنات خطواتها الأولى نحو العالم الخارجي. كلٌّ منها يجدُ شكلهُ، وصورته الخاصّة، ويرتدي زيّه الخاصّ به.
فالربيع هو تمظهُرٌ لسرّ «البعث بعد الموت» بالنسبة للكائنات التي ماتت خلال الشتاء. ومَنْ فعلَ هذا بإمكانه قطعًا أن يبعث الموتى؛ لأنّه لا نهاية لعلمه، ولا لإرادته، ولا لقدرته.

هناك العديد من الأسباب الموجِبَةِ للبعث بعد الموت، وللحياة الأخرى وللحساب، والميزان، وللجنة، والنار. فمثلًا، جميع أسماء ربّنا توجب البعث بعد الموت.
في البداية علينا أن ننظر إلى الكون كي نرى تجلّيات كلّ اسمٍ إلهي وعلاماته وانعكاساته، ثمّ سندرك لماذا يوجبُ ذلك الاسمُ البعث بعد الموت.
فلنأخذ اسم الرحمن مثلًا. إذا أمعنتَ النظر في الأرض وتأمّلتَ ستتمكّنُ من قراءة كتابات هذا الاسم العظيم في صفحات الدّنيا.
انظُر، من أجلكَ تسطع الشمس، وتهبّ الرياح، وتحملُ السُّحُب الماء، وتنزل الأمطار، وتتعاقب الفصول. النباتات والحيوانات تبدو كأنّها تتسابق من أجل أن تعرض لكَ النِّعم التي وُهِبْتَها.
هناك احتمالان اثنان في هذه الحالة: إمّا أنّ جميع المخلوقات تعرفُك وتعرف احتياجاتك، فتسعى في عونِك؛ لأنّها تشفق عليكَ. وإمّا أنّ لك ربًّا يعرفُكَ سخّر لك جميع المخلوقات لرحمتهِ بكَ.
من المعلوم أنّ من المستحيل أن تعرفكَ المخلوقات التي لا علم لها، وأن تُشفق عليك. هذا يعني أنّك تتغذّى بلُطف الرحمن وإحسانه. فربُّك يعرفُك وهو مَنْ يرحمُك، ويلبّي رغباتِك.
أزهار الربيع، وموائد الصيف تُفرشُ من أجلكَ. والأغذية المتنوعّة من فواكه، وخضراوات، ولحم، وحليب، وعسل جميعُها في خدمة حياتك.
لو جُمِع الحليب المحلّوبُ في يوم واحدٍ لكوّنَ نهرًا. ولو جُمع العسل الذي نستهلكُه كلّ سنة لشكّل بحيرات كبيرة. ولو جُمِعَ استهلاك العالم السنوي من الخضراوات لشكّل سلاسل من الجبال. وفواكهُنا تملأ مفازاتٍ كبيرة.
إن الله الذي هو رحيم بهذا الشكل، لا يمكن أيضًا أن يترك الإنسان الذي هو أفضل مخلوقاته في التراب ليتعفّن، ثمّ يُفنِيهُ. فرحمته اللّانهائيّة لا تسمحُ بذلك أبدًا. وإلّا لكان ذلك انقلابًا للحقيقة إلى ضدِّها، أي أن يكون خالقُك ذا رحمةٍ لا نهائيّة، وعديم رحمةٍ في الوقت نفسه، وهذا الأمر مستحيلٌ من حيث المنطق.
في هذه الحالة ستموتُ، وتُدفن لكنّك لن تفنى، بل ستحصُل هناك على النّعم التي تذوّقتها هُنا، وذهبت من دون أن تشبعَ منها.

وهذا مثالٌ آخرُ موجِبٌ للبعث بعد الموت، لكلّ دولةٍ حاكمٌ يضع قوانينَ من أجل ترسيخ النظام، وصُنع مجتمع متجانس، ثم يطلب من شعبه أن يُذْعِنوا لتلك القوانين، كما أنّه يعاقبُ كلَّ مَنْ يعصي أوامره، ويتجاوز حدوده، ويؤذي غيره. ويُنشئ السجون من أجل ذلك. ففي المقابل يُكافئ المطيعين المطبّقين لأوامره الذين يمتثلون للقانون، فهو لا يضعُ السَّيّئين، والجيّدين والعُصاة، والمطيعينَ، والكُسالى، والنشيطين في سلّةٍ واحدةٍ.
هذه الكائنات التي لا حصرَ لها أيضًا دولةٌ كبيرة، كلُّ شيءٍ فيها منضبط، تُدارُ بمبادئَ، وقوانينَ، وقواعدَ محدَّدة، وكلُّ ما فيها يسير بلا تعثّر، فلا شكّ بأنّ ذلك يستوجب وجود مدبّرٍ، ومديرٍ عظيم.
إنّ الله الذي سمّى نفسه بتسعين اسمًا يُولي أهمّيّةً خاصّة لأكملِ المخلوقات في الكون، أي للإنسان. وقد وضع له قوانين خاصّة. لقد خاطب أصحاب العقول بأوامر خاصّة، ومحظوراتٍ.
لا شكّ أبدًا في أنه لن يساوي بين من امتثل لقوانينه، ومن لم يمتثل لها، وأنّه سيعاقب العصاة، ويُكافئ المطيعين.
إذا كان هذا الأمر حقيقةً، فهو لا يُرى في هذه الدّنيا. فالعُصاة يرحلون عنها بلا عقابٍ، في حين يرحل المطيعون دون الحصول على مكافآتهم.
لكي تكتمل حقيقة الدّولة (المثال المذكور) بشكلٍ فعّال سيُنشأُ عالمٌ آخر، وستُخرَجُ الدفاتر في محكمة الآخرةِ، وسيستمع الشهود، فيُعاقبُ المذنبون ويُكافأُ المؤمنون.
كلّ من زرع شيئًا هُنا سيحصُدُ ثمارهُ هناك؛ لأن الدنيا حقلٌ، والمَحْشر بيدرٌ، والجنّة والنارِ كلّ واحدة منهما مخزن.
حسنًا، لماذا لا يعاقَب، ولا يثاب هنا، بل يتأخر ذلك للآخرة؟
لأنّ سرّ الامتحان يستوجب ذلك. فلو أنّ الظالم نال جزاءه فورًا، والمظلوم كوفئَ مباشرةً لكان ذلك إجبارًا، فحينها سيكون الجميع مُجبرًا على الإيمان شاؤوا، أم أبَوْا. عندها لن يتّضح الماس من الفحم، ولن يتمّ التفريق بين الأخيار، والاشرار.

إنّ الله يخلق كلَّ مخلوقاتِه لحكمةٍ، وغايات عديدة. فلكلّ شيء فائدةٌ وهدفٌ، وعدمُ إدراكنا لفائدة بعض الموجودات لا يعني انعدامها.
الكائناتُ مثل النور، فهي مرآةٌ للحكمة الإلهية التي تضيء كلّ شيء، والإنسانُ كذلك؛ ولِكي تُدركي ذلك حسْبك أن تنظري إلى ما حولك.
الجبال أشبه ما تكون بالمستودعات. فهي مليئة بالماء، والحجر، والرمل وأنواع عديدة من المعادن. والغابات تُنتج الأشجار، وتُنظّف الهواء، وتؤوي الحيوانات.
والشمسُ في الوقت نفسه مدفئةٌ، وفانوس، ومصدرُ طاقةٍ، ومركزٌ جاذبٌ يُثبّت الأرض في مدارها.
والنباتات إمّا غذاء لبطوننا، وإمّا شفاء لأسقامنا.
كلّ شيء تامّ كما ينبغي له أن يكون.
يمكن أن نرى أدلّة حقيقة الحكمة حتى في أبداننا.
تأمّلي، كم من المعارف أُعطِيَت لألسنتنا التي هي عبارة عن قطعة من اللحم. فنحن نُعبّر عن مُرادنا من خلالها، ونتذوّق بها أنواعًا لا حصرَ لها من المذاقات. وإذا كان لكلِّ طعمٍ لسانٌ خاصٌّ لكُنّا مجبرين على حمل آلاف الألسُن.
أدلّة الحكمة موجودة في أعضائنا الأخرى أيضًا. فجميعها خُلقت في أحسن تقويم، ووُضِعَتْ في أمثلِ الأماكن، فلا يمكننا أن نأخذَ أيًّا منها لنضعه في مكان مناسب أكثر له.
هذه الحكمة التي نراها في أنفسنا، وعالمنا، وفي جميع الكائنات هي دليلٌ على وجود «رَبٍّ حكيمٍ»؛ لأنّه لا وجود لأثرٍ بلا صانعٍ، ولا فعلٍ بلا فاعلٍ.
إذًا، فالله الذي خلق الكائنات بهذه الحكمة «حكيمٌ»، وهو يقوم بكلّ أعماله بحكمة، ولا يقوم بأيّ عمل عَبَثِيّ.
إذا كان كذلك، فهوَ لن يُفنيَ الناس من دون أن يبعثهم من جديد، ولن يُحوّل حكمته إلى عبث.
إذا كان سيُفني، فلماذا خلقَ في أحسن تقويم؟ ولماذا يعمل مصنع الكائنات من أجل الإنسان؟
افرضي أنَّ رجُلًا كان ذا ذكاءٍ لا مثيل له، وأنّه لا يقوم بأيّ عملٍ عَبَثِيّ فارغٍ لا لزوم له، وأن هذا الرجل أنفق أموالًا كبيرة لتشييد مصنع، ثمّ أحضَر له أحسَن الآلات، وشغّلها ليصنع بها أحدثَ أنواع الحواسيب، ثمّ شَحَن الأجهزة الجاهزة للعمل في سيارة؛ ليُرسلها إلى محلّ البيع، إذا جاء أحدهم، وقال إنَّ «صاحب المصنع سيرمي بتلك الأجهزة في البحر ليدمّرها» من الذي سيصدّقه؟
والكائنات أيضًا مثل المصنع، فهي تعمل وفق نظامٍ دقيق، وأروعُ منتجاتها الإنسان، وإنَّ الموت الذي سيُصيب كلّ إنسان هو حلقة مهمّة في سلسلة الحكمة، وهو حدث من حوادث برنامج القَدَرِ الأزَلِيّ التي لا يمكن تجاوزُها.
لا شكَّ في أن الله -الذي يقوم بكلّ أعماله مراعاةً للعديد من الحِكم، والمصالح والمنافع، والذي لا يقوم بأيّ عملٍ عَبَثِيّ- لا يُفني الإنسان الذي هو المُنتجُ النهائي لمصنع الكائنات فناءً قطعيًّا، وأنّه لا يُميتُه منَ دون أن يبعثه بعثًا آخرَ، ولا يجعل حكمته بلا معنى.

لا شكّ أبدًا في أنّه سيبعثه يوم القيامة، وسيخلق بدنه من جديد، وسيبعث فيه الحياة؛ ليجمعُه بروحه التي تنتظره في عالم القبر، وأنّه سيحاسبه على ما ارتكبه، وفعله في الدنيا، فيُكافئ المؤمن، ويُجازي الكافر.

حقيقة العدل من دواعي الحساب بعد الموت، والعذاب والثواب.
العدالة بالمعنى العام هي القسط بالقياس والوزن، إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّهُ، واتّخاذ الأهلية أساسًا في ذلك.
الخلق المتوازن، والدقيق في الكون دليلُ العدالة، وإنْ لم يكن كذلك، فهناك ظلمٌ، وتعقيدٌ، وعدمُ توازن.
لكن في الحقيقة الدنيا تمثال العدالة، وثمّة تناسب يلفت الانتباه يستند إلى القياس في كل مخلوق، فكل مخلوق يُعْطَى بدنًا مناسبًا لمهاراته.
على سبيل المثال أعضاءُ النَّحْلَة التي تصنع العسل مناسبة تمامًا للعمل الذي ستقوم به، وكذلك البقرة التي تصنع الحليب خُلِقَتْ، وجُهّزتْ بأعضاءَ مناسبة لهذه المهمة.
الجسد الملائم للروح، والأعضاء المتناسبة معَ الوظائف حقيقة من الممكن أن نراها في كلِّ الكائنات الحية.
أما الإنسان، فهو أوضحُ مرآة للعدالة، الإنسان الذي بُعث إلى الدنيا بمهارات من قبيل: التعلم، والتفكير، والقراءة، والكتابة، والمحادثة، زُوِّدَ بأعضاءَ مناسبة لروحه.
إن الإنسان الذي يفكر بإنصاف يمكن أن يدرك بالنظر إلى نفسه أن ربَّه -الذي خلق الكون بمقياس دقيق- ذو عدالة مطلقة.
ما دام الله ذا عدالة مطلقة، فإنه سيكون عادلًا في كلّ تصرفاته، لن يرضى بالظلم، وسيعاقب الظالمين.
ومع ذلك، فإن حقيقةَ العدالة لا تتحقَّقُ بحذافيرها في هذه الدنيا، ومن هذا نفهم أنَّ هناك عالمًا آخرَ سيُبْعَثُ فيه الإنسان من جديد، تؤسَّس فيه محكمةٌ يتمُّ فيها الحساب، وتوزن الأعمال، ويُستَمَعُ للشهود، وتُصْدَر الأحكام.
وأخبر آخر الأنبياء - مثلما فعل بقية الأنبياء- عن وجود الآخرة، وقال ما معناه: سيُبعث الناس، ويُحاسبون، ويُثاب المؤمنون، ويُعاقب الكافرون. الرسول يتكلم بوحي من الله، يتكلم مستندًا إلى الله.
ولا شك في أن الله سيصدق أحبَّ عباده، وستكون الآخرة، وسيتحقق ما أجمع الرسل عليه، ألا وهو البعث بعد الموت، ولن يكون المنكرون للآخرة والمكذبون بها على الحق.
إذا لم يكن هناك بعث، وآخرة يُكافأ فيها المؤمنون بالجنَّة، ويُعاقب فيها الكافرون في النار، فليس ثمَّة فائدةٌ من إرسال الرسل، وتنزيل الكتب.
وهكذا يكون الدين مثل لعبة، وتذهب عبادة العابدين سُدى، وينجو الظلمة والطغاة والعصاة. لكن العدالة الإلهية لا تسمح بهذا الظلم.

يعتقد المؤمنون أن هناك آخرة، وعلى هذا يُنظّمون حياتهم، ويبتعدون عن كثير من ملذّات الحياة، ويتحمّلون الكثير من المتاعب. تخبر جميع الكتب السماوية عن البعث بعد الموت. وهذه واحدة من علامات البعث بعد الموت، فالله لا يخلف وعده.
إذا وعد شخصٌ ما لم يخلف وعدًا طوال حياته، فنحن نصدقه، ونثق بوعده، ولا سِيّما إذا كان الوعد من أجل شيءٍ يسهُلُ القيام به.
أما في مسألة الحياة الأبدية والخلود، فإن الذي خلقنا يعد بذلك، ويقول إن ثمَّة عذابًا لمن لا يطيع أمري، ويعلن ذلك من خلال رسله وكتبه، فيُؤَمِّل المؤمنين ويُحذر الكافرين، لا شكّ في أنه سيفي بوعده.
هناك ثلاثة أسباب لمن لا يفي بوعده، أو لا يستطيع أن يَفِيَ بوعده:
إمَّا أن ينسى، وإمَّا أنه لا يقوى، وإمَّا أن أخلاقه سيئة، فيعد، ويتراجع عن وعده.
إنَّ كلّ هذه الصفات بعيدةٌ كلّ البُعْدِ عن ربِّنا سبحانه وتعالى.
النسيان لا يمكن أن يكون، فهو صفة المخلوق العاجز.
لم لا يستطيع الله القادر على كلِّ شيء أن يخلق ما خلق من عدم مرة أخرى؟ الصادق بكلمته، الموفي بعهده، كلّ أسمائه جمالها مطلق.
بعث الناس وحسابهم، وخلق الآخرة، وإعطاء كلِّ ذي حقّ حقَّه، في غاية السهولة بالنسبة لله الذي خلق الكون كله. لا سِيّما أنه صاحب العلم والإرادة، والقدرة المطلقة.
في ربيع كل عام تتجلّى هذه الصفات لمَنْ يتأمّل، إنَّ الذي خلق هذا الكون الكبير الرائع مع العديد من الآثار في داخله، أليس بقادر على بعث الموتى؟ بما أنه وعد، فلا شك في أنه سيفي بوعده.
ولو لم يكن هناك أيُّ سببٍ آخرَ سوى وعدِهِ سبحانه بالبعث بعد الموت وخلق الآخرة، لكان كافيًا.
إن الله يعطي كلّ ذي حقّ حقَّه، يؤجّل حكمه لكنه لا ينساه، إنه يمهل ولا يهمل.
تأجيل الدعوى لكِبَرِ الذنوب؛ لأن الذنوب الكبيرة تحتاج الى محكمة كبيرة.
إن ذنوبًا مثل الكفر، والمعصية، والظلم ذنوب عظيمة، لا يمكن تركها دون حساب.

العقل هو أداة الإنسان للفهم، لكن الإنسان ليس عبارة عن مخلوق من عقل فقط، فالقلب يقف في مكانٍ أعلى، وله ذكاؤه وحَدْسُهُ الخاص به.
الحَدْسُ مَلَكَةُ فهمٍ مسألة ما في وقت قصير، كوميض البَرْق.
تأمّلي مستخدمةً هذا الحَدْسَ، إن بعث ما بعد الموت الذي يتبدّى على نطاق ضيّق في الكائنات يخبر بالبعث الكبير.
في كلِّ ليلة تنامين، ويغيب وعيُك، وتنقطع علاقاتك مع محيطك، حتى إنك لا تدرين شيئًا عن نفسك.
النومُ موتٌ مصغّر، وعندما يحلُّ الصباح فإنك تبعثين، إنك في كلّ صباح تعيشين الحَشْرَ.
أكثر من مئتي ألف نوع من النباتات تموت في الخريف، تموت وتنمحي من على وجه الأرض، وعندما يحل الربيع تبعث بأوراقها وأزهارها وثمارها، وتخلق من جديد.
انظري إلى جسدك، في كلّ سنة تموت الخلايا القديمة، وتأتي مكانها خلايا جديدة، في بضع سنوات يتجدّد جسدك، ويأخذ مكان جسدك القديم.
إن كلَّ الخراب، والبناء، والإحياء المتكرّر في الأرض بالنسبة للإنسان المفكّر علامات، وأدلة، وبراهين على الخراب العظيم، والبناء العظيم، والبعث بعد الموت.
فكّري ساعة في كلّ أسبوع، تقدّم الثواني علامة على التقدّم في الدقيقة، التقدّم في الدقيقة علامة على التقدّم في الساعة، والتغيّر في الساعة علامة على تقدّم اليوم.
وفي هذا الكون تعمل الساعة الإلهية دون توقّف، إن اليوم، والسنة، وعمر الإنسان، وعودة العالم أمور مرتبطة بعضها ببعض.
إن عمل هذه الساعة الكبيرة علامة على البعث بعد الموت، كما يأتي الصباح بعد الليل، والربيع بعد الخريف، سيأتي صباح البعث بعد الموت.
ساعة الكون تعمل، وما مضى لا يعود، وتأمّلي في خلقك، إنك مجهزة بمهاراتٍ، وميولٍ، ورغباتٍ لا حصرَ لها، وتختلط في روحك مهاراتٌ وأفكارٌ ومشاعرُ لا حصْرَ لها.
قد توجَّهت بكلّ مشاعرك، وطموحاتك، وتوقعاتك نحو عالمٍ لا نهايةَ له، إنك تطلبينه. لو استمعت إلى صوت ضميرك بأذن قلبك لسمعت صرخة: «أريد حياة خالدة». كما يبحث صغير البطّ عن الماء فور خروجه من البيضة، فإن قلبك يبحث عن بحر الأبَدِيّة، ويريده، ويأمل الوصول إليه. لو أعطيته الدنيا لما شبع، لا شكَّ في أن مركز جذب هذا القلب، وهذا الضمير هو الجنة الخالدة.

الحَشْر، أيْ بعثُ المليارات من البشر في فترة قصيرة يُعَدّ حادثة كبيرة لا يستوعبها إدراكنا، وحتى خيالنا يعجز عن ذلك.
وسبب ذلك أننا نعرف الدنيا فقط، وبمقاييس الدنيا لا نستطيع تخيُّل حياة الآخرة.
إذا كانت الدنيا بذرةً، فالآخرة شجرة، كيف لإنسان لم يَرَ شجرة أن يتخيّلها؟
إن الرسول - صلى الله عليه وسلم- يوضح هذا الفرق أجمل إيضاح بقوله: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».
فكّري بطفلٍ عاقلٍ لا يزال في رحم أمه، إن عالمه عبارة عن المكان الذي هو فيه، لا يعرف لأنّه لم يَرَ الدنيا، لا يعرف لا الشمس، ولا التراب، ولا الحيوانات، ولا النباتات.
لو أمكن لنا أن نشرحَ له هذه الأشياء، فلن يستوعبها عقله، إن المعلومات العادية بالنسبة لنا هي شيءٌ لا يُصَدّق بالنسبة له.
ما نسمّيه ولادةً بالنسبةِ للطِّفل هو موتٌ؛ لأنه يخرج من دنياه.
إن هذا الخروج يخيفه، من الممكن أنه لا يريد أن يولدَ، لكنه لو عرف الحقيقة، وصدّقها ذهب خوفه، ولأراد أن يخرج من رحم أمه الضيق إلى العالم الفسيح بأسرع وقت.
إن الانفصال عن الأم من جهةٍ هو موت، لكن من جهة أخرى بداية يمثّل حياة جديدة.
نحن الآن في رحم الدنيا، هذه الدنيا بالنسبة للآخرة أضيق من رحم الأم ومحدودة أكثر.
إن ما نسمّيه نحن موتًا، هو بالنسبة لأهل الآخرة ولادة، نعبر عن طريق القبر من رحم الدنيا إلى الدار الآخرة.
خاصة أنّ الآياتِ عندما تتحدّث عن البعث تريدنا أن نضع خلقنا الأول نصب أعيننا، حتى لا نستصعب قبوله. فلِمَ لا يستطيع مَنْ خلق في المرة الأولى أن يخلق مرة أخرى؟
إن طفلًا ما يزال في رحم أمه لو تمعّن في نفسه وفكّر، لتمكّنَ من أن يدرك وجود الدنيا؛ لأن أعضاءه من مثل: اليد، والذراع، والرجل، والفم، والعين والأذن، لا فائدةَ لها في رَحِمِ الأم، من الواضح أن هذه الأعضاء خلقت لتُستخدَمَ في مكان آخر.
وأنت لو تفكَّرْتَ بقدراتك لتمكَّنْتَ من معرفة وجود الآخرة، عندك رغباتٌ لا حصرَ لها، وطموحاتٌ لا نهايةَ لها، وطلباتٌ لا حدَّ لها.
كما أن شعور الجوع دليل على وجود الطعام، فإن شعور الخلود في قلبك دليلٌ على وجود الآخرة.
في حياتك القصيرة في هذه الدنيا ربّما تستخدمين واحدًا من الألف من مهاراتك، دون أن تثمر، وربّما قبل أن تتمكن من أن تبرعم تموت!
حتى عندما يموت الإنسان يكون مملوءًا بولع الحياة، ألا تشي هذه الحقائق بوجود دنيا أخرى؟

-50-

كنا نجلس أنا، وفوسون، وكولاي في قهوة، وبينما كنا نتبادل أطراف الحديث في مواضع مختلفة، دخلنا في موضوعات جَدِّيَّة.
قالت فوسون متسائلة: هل يدخل الجنة مسيحيٌّ يؤمن بديانته دون أن يكون مسلمًا؟
وأوضحت سبب طرحها هذا السؤال بأنها تعرّفت على رجل على الإنترنت اسمه ألفرد، يعيش في إنكلترا، وهو يتبع الكنيسة الإنجيلية.
بدأت في الأيام الأخيرة النقاش معه في مواضيع دينية، هو أيضًا مثل فوسون عارض أزياء، يعمل مروّجًا لشركة ملابس للشباب.
كولاي أفتت فورًا: «برأيي يمكن أن يدخل، بالنتيجة المسيحية دين سماوي».
بعدها تشعّب الموضوع، حتى وصل إلى نقطة: «ما مصير من لم يسمع بالإسلام، أو بأيِّ دين آخر.».
ماذا تقول: هل سيكون مكلّفا من لم يُبلّغ الدين الأخير، أو الأديان السابقة؟
لا، لن تُعذَّبَ الأمة التي لم يُرْسَلْ إليها نَبِيٌّ، وفي ذلك آيةٌ صريحة:
{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}.
الإنسان الذي لم تصله الدعوة الإلهية، لا يحاسَبُ بأحكامِ الدين، وينجو من العذاب.
أهمُّ فتاوى العلماء، وعلى رأسهم الإمام الغزالي تقول بذلك. إلّا أن الآراءَ تعدّدت في موضوع إيمانهم من عدمه، فبحسب بعض العلماء لو أنه لم يؤمن، وكفر ينجو من العذاب؛ لأنَّ التكليف يتحقق فقط بإرسال رسول، فالشخص لم يُبلغ حتى يؤمن، أما بعض العلماء، فقالوا: إنَّ الإنسان بعقله يستطيع أن يجدَ خالقه.
وبحسب هذا الرأي، فحتى لو أخطأ هؤلاء في أسمائه، وصفاته يجب أن يتمكَّنُوا من أنْ يقولوا: «هناك خالقٌ».
لكنَّ القولَ الأوّلَ هو الأقربُ إلى القبول، ويبدو مناسبًا لمعنى الآية.
حتى لو لم يأتِ رسولٌ في زمن، من الممكن أن تكون قد وصلت إليه أوامر من الرسل السابقين، فهل سيكون مسؤولًا عنها في هذه الحالة؟
لا، هذه البيانات لا يمكن أن تكون كافية لتكليفهم؛ لأنها تبقى مستورة وراء ستارة، الشخص يعرف، إذا التزم يُكافأ، وإذا لم يلتزم لا يعاقب.
هذا الصِّنْفُ من البشر هل سيكونون في الآخرة على درجة واحدة؟
ألن تكون بينهم فروقٌ في الدرجة؟ هناك أعمالٌ سيِّئةٌ متّفق عليها بين الناس، يمكن إدراكها بالضمير؛ أكل الحق، السرقة، الكذب، وغيرها.
إنَّ مفهومَي الخير والشر موجودان حتى في المجتمعات البدائية، والشخص بإمكانه أن ينضمَّ إلى الصالحين من خلالهما، وإذا لم يسمع شخص ما بالرسالة السماوية الأخيرة، فهو مكلّفٌ بدينه، وسيحاسب عليه، وإذا سمع لكن هذا السماع كان من طرفٍ سلبِيٍّ، فسيعتبر كأنه لم يسمع.
على سبيل المثال: العلماءُ، والوجهاءُ، والمفكرون في البلد يتحدثون باستمرار ضدّ الدين الأخير، فالشخص العادي الذي يسمعهم، ولا يعرف أصل المسألة معذور.

لا يمكننا أن نقول: «لو أنه بحث لوحده»؛ لأن أكثر الناس عوامّ، يقلّدون العلماء، فيؤمنون، أو لا يؤمنون.
أما الشخص الذي ينتمي لدينٍ سماوِيٍّ سابقٍ، وسمع برسالة الإسلام، فيجب عليه الإيمان؛ لأنه لم يبقَ له عذر.

-51-

تحدثنا عن القيامة، والمحشر، والبعث، لكننا لم نتحدث بشكلٍ مستفيضٍ عن الجنة والنار، حبَّذا أن تتحدث عنهما قليلًا.
من الواضح أنَّك ستذهب إلى الجنة، وأنا إلى جهنم، لكن اشرح لنا كلا الأمرين حتى نفهمَ الأمر.
مثلًا: كيف الجنة؟ وهل يمكن للإنسان أن يرى خالقه؟
إن الله عليم بمن سيذهب إلى الجنة؟ ومن سيذهب إلى النار؟.
ليس ثمّة ضمانٌ لأحد، وهذه حقيقة تُبقي الإنسان في حالة حذرٍ دائمٍ.
ينبغي المشيُ في طريق مستقيمٍ بين هذين الشعورين، من جانبٍ يأملُ بالجنة ومن جانب آخر يخاف النار، الخوفُ والأملُ يوازن بعضهما بعضًا.
قال أحد الصحابة الكاملين: «لو نادى مُنادٍ من السماء أيُّها الناس إنكم داخلون الجنة كلّكم أجمعون إلّا رجلًا واحداً لَخِفْتُ أن أكونَ هو. ولو نادى مُنَادٍ أيها الناس إنكم داخلون النار إلّا رجلًا واحدًا لَرَجَوْتُ أن أكون هو».
ثمَّة نهريان يجريان من هذا العالم إلى الأبدية؛ أحدهما يصبّ في الجنة والآخر في جهنم.
الدنيا مزرعة، والمحشر مفرزة، والجنة وجهنم مستودعان.
من يستحقُّ النار سيرسل إلى جهنم، أما مَنْ يستحقّ النعيم، فسيرسل الى الجنة.
هناك جنّات مختلفة تنتظر المؤمنين، لكلِّ جنّة جمالٌ مختلفٌ.
الناس في الجنة يتنعَّمون كلٌّ حَسْبَ عمله في الدنيا، ويُعطى لكلِّ مؤمنٍ مكانًا بحجم الدنيا. ليس فيها لا جوع ولا عطش، ولا شمس تحرق، ولا برد شديد.
لقد طهرت أرواح أهل الجنة من كلّ المشاعر والأحاسيس السلبية، فلا ألم ولا ملل، ولا حزن ولا كدر، والموت قد مات، الخوف والهموم صارت شيئًا من الماضي.
لا يمكن وصف نعيم الجنة الخالدة، بقدر ما يمكن أن يفهم الجنين في رحم أمه حياة الدنيا، إننا بالكاد نستطيع أن نفهمَ الجنّة بهذا القدر.

وهناك أيضًا نعمة «الرؤية» التي هي أكبر من كلّ النعم. فالمؤمنون سيرون ربّهم.
غير أنّ بعض الناس يعتقدون أنّ نعمة الرؤية ستكون في الجنّة، وهم مخطؤون. لا، لن يُرى الله في الجنّة، بل سيُرى من الجنّة. انتبهي للفرق.
لقد سُمِّي هذا النوع من الرؤية بـ «الرؤية». وهي كلمة تتّحد في أصل الجذر مع كلمة الرؤيا.
لا أعرف ماهيتها، ولا ذاتها، ولا شكلها الداخلي، ولا يمكنني تفسيرها. لكنّ بإمكاني أن أعطي نبذة عمّا لا يمكن أن تكونه.
إن الله ليس بمادّة، ولا جسم. ولا هو في جهة، ولا يحويه مكان؛ ولكنه مستوٍ على العرش فوق السماء السابعة، لذلك من المستحيل رؤيته كما تُرى الأجسام. ولا يمكن للأبصار المحدودة أن تحيط به.
هناك مصطلح اسمُه «المعرفة»، فمعرفة الخالق بأسمائه، وصفاته، وشأنه تُسمّى في لغة الإيمان بـ «المعرفة».
يمكن للإنسان أن يعرفهُ بالتأمُّل في مخلوقاته، وقراءة كتابه، والإنصات لأنبيائه، والرؤية كمال المعرفة. أي أنها درجة عالية جدًّا منها، وبذرة الرؤية هي المعرفة، فالإنسان الذي لم يظفر بالمعرفة في هذه الدنيا لا يمكنه أن يتذوّق نعمة الرؤية كما ينبغي، وعلى قدر معرفة الإنسان تكون رؤيته؛ لأن الدنيا بذرة، والآخرة شجرتها.
إنّ معرفة المرء لربّه في هذا العالم هي وسيلةٌ لرؤيته في الآخرة. وأكبر نعمة، ولطفٍ، ولذّة في الجنّة تكون في الرؤية، فساعة واحدة من الرؤية تُعطي لذّة تفوق ألفَ سنةٍ من لذّة الجنّة، والإنسان العاقل هو مَنْ تنبَّه لهذا الأمر، فسعى بجميع قوّتِهِ للحصول على نصيبٍ أكبرَ من المعرفة.

عندما تُذكرُ الجنّة يخطُر في بالي عالمٌ روحيّ، وأناسٌ في خفّة الريشة يلبسون البياض. أعتقد أن ذلك سببُه التأثر بالأفلام الغربية، ما قولُك؟ هل سيكون بدني معي في الجنّة؟ وإذا قُدّر لي دخولها، ما الذي سأحظى به هناك؟

الروح والبدن سيكونان معًا في الجنّة، وسيتلذّذان سَوِيًّا إلى ما لا نهاية. لأنهما كانا يتحرّكان معًا في الدنيا، فأنتِ تُمارسين العبوديّة لا بالروح فقط، بل بالبدن أيضًا. والعدالة الإلهية ستُعطي لكلّ صاحب حقّ حقّه.

أما عن الملذّات، فإن في الجنّة كلّ أنواع الملذّات التي تُرضيك.

ستنالين رؤية ربّك الذي له أجمل الأسماء والصفات، وستتمكّنين من النظر إلى جماله اللّانهائِيّ. وقد سبق أن ذكرتُ هذا.

كما أن هناك نعمًا، وملذّات، ومُتعًا متعلّقة بالجسم أيضًا. مثل الأكل والشرب والتزوّج، وامتلاك البيوت.

فالذي خلق ما لا حصر له من الخضراوات، والفواكه، والمأكولات في هذه المساحة الضيّقة المسمّاة دنيا، سيخلُق في الجنّة قطْعًا ما هو أفضل منها بمليون مرّة، وهذه النسبة تَصْدُق على المشروبات أيضًا.

ستمتلكين في الجنّة أجمل البيوت، وستعيشين في قُصورٍ تجري من تحتها الأنهار.

هناك مذاقات دائمة التجدّد. وستتمكّنين من الاجتماع مع من تحبّينهم، وستستمتعين بالسعادة الناتجة عن ذلك.

ومن بين الأشياء التي تجعل من اللّذة كاملة تجدُّدُها المستمرُّ. فملذّات الجنّة من هذا النوع، لا تنتهي، ولا تنفد.

الجمال كلّه تحت يديك، ومُسَخّرٌ لك، وفي كلّ لحظة تحصلين على طعمٍ جديد، وهناك أيضًا الكثير من الوقائع والموجودات التي ستدهشُك.

بمجرّد تأثّر الإنسان بحدثٍ، أو وضعيةٍ ما، فإنه يرغب في مشاركة تأثّره ذلك مع شخصٍ يفهمُه. وحتّى هذا الشعور سيُمنح في الجنّة، إذ ستكونين مع زوجِكَ دائمًا، وستتمكنين من تقاسم حماستك، ودهشتك وفرحك معها.

أما نساء الجنّة، فإنّهنّ سيخضعن لعملية تطهير، ولن يبقى فيهنّ أيّ أثرٍ لما كان يطرأ عليهنّ في الدنيا. وسيتّصِفنَ بجمالٍ يحارُ منه النّاظر إليهنّ.

إنّه من المستحيل إدراك الجنّة إدراكًا كاملًا من خلال العقل الدُّنْيَويّ. وقد سبق أن قلتُ إننا مثل الجنين الذي في رحم أمّه، فكيف للجنين أن يُدرك الدّنيا؟ كيف له أن يفهم ما البحر، وما السحاب، وما الربيع؟

نحن الآن في رَحِمِ الدّنيا، وعندما نسمع عن النِّعَمِ التي في الجنّة، فإننا نُمثّلها بالجمال الذي نراه حولنا، هذا كلُّ ما في الأمر.

سأُغلقُ هذا المبحث بحديثٍ يقول: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِم وَثِيَابِهِم، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ، وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُم أَهْلُوهُم: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُم، وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُم بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا». رواه مسلم

قرأتُ نَصًّا يقول إنّ «في الجنّة شرابًا أيضًا». شراب من نوع «طهور».
إذا كان بإمكان السِّكِّيرين أن يدخلوا الجنّة فيا لسعادتهم! شرابٌ مجّانيّ، وإلى ما لا نهاية.
مع أنَّ كاتب النَّصِّ لم يذكر ذلك صراحة إلَّا أنني أعتقد بأنّه يبحث عن غطاءٍ لحُبِّه للشراب، ويسعى إلى إراحة ضميره.
هذا خطأ آخر يقع فيه من يقع بسبب عدم معرفة المعاني الحقيقية للمصطلحات، فإذا كان الذي يخطر ببال الإنسان هو الخَمْرُ المُسكِرُ عندما يُذكرُ الشراب، فحينها لن يكون هناك أيُّ مفرّ من هذا الخطأ.
الشَّراب يعني السائل الذي يُشرب. وهو يُطلقُ على المُسكِر منه، وغير المُسكِر أيضًا. كما أنّ كلمة «مشربة» التي تعود إلى الجذر نفسه تعني كوب الماء. و«المشروبات» تعني كلّ ما يُشرب. و«الشروب» كذلك.
نعم، يوجد في الجنّة شرابٌ. لكنّه ليس شرابًا مُسْكِرًا. و«طهور» ليس اسمًا لنوع ذلك الشراب، بل هو صفتُه، وخاصّيّته. أي أنّه شرابٌ نظيفٌ، وحُلو. والآية تُبيّن أنّه: «لا يُثمِلُ ولا يُسكِرُ»، فهو نعمة لا مثيلَ لها أُعطِيت للمؤمنين مكافأةً لهم.
وشاربُ الخمرِ الحرامِ من المُمكن أن يختلق أعذارًا لنفسه بتأويل الآيات تأويلًا خاطئًا حتّى يُريح ضميرَه. ولا شكّ في أنّ هذه الأعذار لن تكون مقبولة. وحتى إذا افترضنا أن شراب الجنّة مصنوعٌ من نوع مُسْكِر، فإنّ ذلك لا يُحلّلُ شرابِ الدنيا.
إنّ الذي امتحننا في الحياةِ الدّنيا قد وضعَ حدودًا للنعم الأرضيّة، وحرّمَ كلّ شرابٍ مُسْكِرٍ. الحُكم واضحٌ وبيّن، فلا معنى للبحث عن مُسَوّغٍ، أو غطاءٍ. أمّا أن تشربي، أو لَا تشربي، فتلك مسألة أخرى.
لكلّ حُكمٍ علّةٌ وحكمة، فالعلّة تعني السبب الحقيقي، أمّا الحكمة، فهي المنفعة أو المَضَرَّة التي في ذلك الحكم.
الأمرِ الأساسِيّ في كونِ الشّيءِ حرامًا، أو حلالًا هو العلّة. أما الحكمة، فتأتي لاحقًا.
حسنًا، ما هي علّة الأوامر الإلهية؟
الأمر الإلهي يعني أنّ كلَّ ما أمر به الله هو القانون؛ لأن القوانين الإلهية لا تُبنى على النتائج.
إذا قال ربّنا عن شيء ما إنه حلالٌ، فهو حلال، ونحن نفعله. وإذا قال عن شيء ما إنه حرامٌ، فهو حرام، وعلينا أن نتجنّبه.
لماذا لا تشرب الخمر؟ لأن الله حرّمه. لماذا لا تأكل لحم الخنزير؟ لأنّه حرام، أما المنفعة، والضرر، فمسألة لاحقة.
لا شكّ أنّ في الأوامر المُحدّدة بالقوانين الإلهية كثيرًا من الخير والجمال والفوائد. أما محاذيرُه، ففيها الكثير من الشرور، والقبائح، والمَضرّات.
ولنا أن نبحث تلك الأمور، ونتساءل عنها، ونفكّر فيها، بشرط ألَّا ننسى العلّة الأساسية.
وهذه أيضًا من أنواع العبادة، ولها أجرٌ خاصّ. أمّا الخطأ، فهو وضع الحكمة في موضع العلّة.

-55-

قلت في نفسي: «لأقرأ شيئًا من ترجمة القرآن»، فلمّا قرأتُ مُلئتُ رُعبًا. تهديد في تهديد. ستحرقون في جهنّم، ستكوي الزبانية أرواحكم، ستذوقون عذابًا أليمًا، ستقولون ليتنا كُنا ترابًا، إلخ.
عند الحديث عن العذاب تُصوَّرُ العديد من المشاهد المفزعة. ما الداعي إلى كلّ هذا التخويف؟
الخوفُ صفةٌ إنسانية، مثل الحبّ بالضبط. المهمّ في الأمر هو مَن يخاف المرء؟ ولماذا يخافه؟ وما مقدار خوفه إيّاه؟
وللخوف أنواعٌ، فخوف الله مثلًا ليس من جنس خوف الإنسان من عدوّه، إنه يشبه خوف الرضيع من أمه، فيه لذّة، وأمان، وأمل.
إذا سُئِل رضيعٌ عن أحلى أحواله، ربما كان سيجيب بقوله: «حالة خوفي من صفعة أمّي، ثمّ لجوئي إلى حضنها».
وهكذا هو خوفنا من الرحمن، فهو خوفٌ يدفعنا إلى أحضان رحمته.
ما دام الخوف جِبلّةً، فهو موجود في الإنسان، وسيُذاقُه قطعًا. فإمّا أن يخاف المخلوقين، أو الخالق، والعيشُ مع خوف المخلوقين يورثُ الألم لدى الإنسان؛ لأنهم من جهةٍ كثيرون، ومن جهة أخرى عديمو رحمة. أمّا الرحمنَ، فهو يُخيفُنا؛ لكي يُعيدنا إليه، ويُنجّينا من جهنّم، ويدعونا إلى الجنّة.
للتربية جناحان مُهمَّان. أحدهما المكافأة، والآخر العقاب.
لا شكّ في أن المكافأة أكثر تأثيرًا، لكن لا يمكن أيضًا إنكار تأثير الخوف من العقاب. فالخوف الإلهي يردع الإنسان عن ارتكاب المعاصي، وهو سوط يوجّه الإنسان باتّجاه الرحمة الإلهية، فالإنسان أحيانًا يتصرّف مثل الطفل. ينخدعُ برغبات النفس القبيحة، ويتكاسل عن العبودية.
والله الذي هو أعلم بما خلق، يُخوّفُ عبده بجهنّم، ويُحرّك فطرة الخوف لديه، فيمنعه من ارتكاب المعصية، ولهذا النوع من الخوف شكلٌ آخرُ، وهو الخوف كما يخاف المُحبّ حبيبه، فالرجل العاشق يخاف كسر خاطر حبيبته وتعذيبها، وإحزانها. كما أنه يخاف عدم حبّها له؛ لذلك فهو حَذِرٌ في جميع حركاته، وكلماته.
والرَّبُّ أيضًا إذا ما صار معشوقَ الإنسان، ومحبوبه، فإن الخوف يدبّ في قلب العبد، فيخاف ارتكاب أعمالٍ لا ترضيه. وهذا الخوف لا يشبه خوف جهنّم، فهو حُلوٌ. نعم، في هذا الخوف لذّة لا يعرفها إلّا من تذوّقها.

أنت تقول إنَّ مَنْ مات غير مؤمنٍ سيخلُد في جهنّم. وعمر الإنسان مهما طال، فهو في النهاية محدود. حسنًا، كيف يكون من العدل أن يُجازَى عُمُر الكُفر المحدود بجزاء جهنّم اللّامحدود؟

لهذا الأمر بعض الأسباب، وسأُلخّص بنفسي خمسة أسباب ذُكِرت في كتاب «لمعات».

أولها: أنّ الإيمان يستوجب جنّة أبديّة، وعليه فإنّ الكُفرَ الذي هو ضدّه يستوجب نارًا أبديّة.

ثانيها: أن الكافر يُنكِرُ أنّ ذوات المخلوقات تشهد بوجود خالق لها. والمخلوقات لا يُمكن حصرها عددًا.

ثالثها: أنّ الكُفر جحودٌ لنعمٍ لا حصر لها، وبالتالي فهو يستوجب عقابًا لا نهائِيًّا.

رابعها: أنّ الكافر يُنكر ذاتَ ربّه، وأسماءه وصفاته، وهي أمورٌ لا نهائية؛ لذلك فهي تستوجب وقوع عذابٍ لا نهائِيّ.

خامسها: أن ضمير الإنسان يُبدو محدودًا في ظاهره أمّا من ناحية فطرته، فهو يتطلّع إلى الأبديّة، ويرغب فيما هو أبدي.؛ لذلك فإذا كان خياره سلبيًّا فإنّ جزاءه سيكون وفقًا لذلك.

تأمّلي في هذه الأسباب؛ لكي تدركي السّرَّ في خلود الكافر في جهنّم.

إنّ مَنْ كان هذا هو خياره في الامتحان، فترك الإيمان، واختار الكُفر فسيُلاقي جريرة ذلك حتمًا في النهاية.

أمّا من لم يُكلّف، أيْ من لم تصله دعوة الأنبياء، فإنّه لا يُسأل أصلًا.

نحن نتحدّث هنا عن الكافر الذي كان مُخاطَبًا بالدعوة، وأنكرَها عن قصد.

كما أنّ العقوبات التي تُقابَلُ بها الجرائم في الدنيا تعطينا إشارات أيضًا في هذا الخصوص، فالقُضاة لا يتعاملون بمنطق: «هذا الرجل ارتكب جريمة في دقيقة، وعليه يجب أن تكون مدّة عقابه دقيقة». وأحيانًا يُحكَمُ بالسجن المؤبّد على مَنِ ارتكب عقوبة القتل العمد. لماذا يحصل هذا؟

لأنّه قاتلٌ سلبَ المقتولَ حياتهُ، وإذا لم يُقتل على يديه، ربّما كان سيعيش خمس عشرة سنة أخرى. هذا يعادل سبعة ملايين دقيقة تقريبًا.

فلنُطبّق هذا المثال على موضوعنا. دقيقة كُفرٍ واحدة تُعادلُ ألف جريمة. أي أنّ الذي يعيش عشرين سنة كافرًا يُحاكمُ بمعايير الدّنيا بسبعةٍ وخمسين ترليون سنة!

إذا كان الأمر هكذا بالموازين الفانية، فلا شكّ أنّ الخلود في جهنّم في عالم الآخرة الأبديّ حُكمٌ عادلٌ.

دعنا نتحدّث بشيءٍ من التفصيل عن جهنّم، ففي ذهني كثير من الأسئلة حول هذا الموضوع. بعضها لي، وبعضها لأصدقائي. هل هناك من سيبقى مدّة في جهنّم، ثمّ ينتقل إلى الجنّة؟ من هم أولئك؟ وما الذنوب التي تورث صاحبها الخلود في جهنّم؟ وما دام الله رحيمًا، أفلن يرحم أبدًا الذين سيقبعون في جهنّم لعصورٍ أبديّة؟

نعم، المُذنب الذي يُدفَنُ، وهو مؤمنٌ سيدخل الجنّة بعد أن يُعذّب في جهنّم على قدر ذنوبه. سيدخُلها حتّى إذا كانت ذنوبه بعدد رمال البحار. يكفي أن يُدفنَ مؤمنًا.

أما الكافر، فسيخلُد في جهنّم، ولن يذهب إلى الجنّة أبدًا؛ لذلك فإن الإيمان أهمّ مسألة، والكُفر لا يشبه الذنب، فالإنسان يتعب من الذنوب، وحتى إذا مالت نفسه للذنب، فإن بدنه يمكن أن يتعب، ويمكن أن يعود في النهاية إلى حياةٍ صالحة. وحتى إذا لم يعد، فإنه يُعذّب على قدر ذنوبه فقط.

لكنّ انعدام الإيمان عذاب كامل، ويؤدّي إلى الخلود في جهنّم. حسنًا، ألن يرحم ربّنا الرحمن الرحيم كُفّار جهنّم أبدًا؟ ستتوجّه إليهم الرحمة الإلهية بوجهين.

أولهما: أنّ الله لا يُفني ذلك الكافر، بل يجعله يعيش، وإن كان في جهنّم. مثلما يُفضّل الشخص السجن المؤبّد على الإعدام، كذلك يفضّل الكافر أن يبقى في سجن جهنّم على الفناء. وهذه الجزئية تحدّث عنها كلّ من دوستويفسكي في روايته: «الجريمة والعقاب»، وألبير كامو في روايته «الغريب».

والشيخ بديع الزمان أيضًا تطرّق لهذا الموضوع. إذ يقول:

«في صغري تساءلت بيني وبين نفسي: تريد أن تُعطى عمرًا طوله مليون سنة، ومعه سلطان الدنيا، ثمّ تفنى؟ أم تريد وجودًا أبديًّا لكنّه عاديٌّ وقاسٍ؟ فإذا بنفسي ترغب في الثانية، وتتأوّه من الأولى. إنني أريد الخلود وإن كان جهنّم».

وثانيهما: أنّ الكافر كلّما تعذّب أكثر اعتاد ذلك، ولم يعد يحسّ به بنفس القدر الذي في البداية، فمن يدخل السجن في الدنيا يتألّم كثيرًا في البداية، لكنّه يتعوّد قليلًا مع مرور الوقت، بالإضافة إلى أنّ قلب الكافر سيرتاح؛ بسبب تعرّضه للجزاء الذي يقدّره الله الذي لا حدَّ لعدله.

في الدنيا أمثلة لذلك، فكم من أناسٍ ذوي كرامةٍ يبلّغون عن أنفسهم إذا ارتكبوا جرمًا، ويجدون في العقاب ما يريحهم أكثر من العيش بجريمتهم. ودوستويفسكي فهمَ هذه الجزئية أيضًا، وبيّنها. فمن أمثلة ذلك راسكولنيكوف الذي اختار نَيْلَ العقاب على العيش مع تأنيب الضمير، فسلّم نفسه للشرطة. هذه من أكثر الأحداث جدارةً بالاهتمام في رواية: «الجريمة والعقاب».

-58-

أحيانًا أفكّر في حياتي القديمة، فقبل التعرّف عليك، والحديث إليك كان الموت بالنسبة إليَّ مجرَّدَ فناءٍ، وسقوطٍ في بئرٍ مجهول، ودخولٍ في نفق مظلمٍ، ومفارقة لجميع الأحباب، وانطفاءٍ للحياة، ونهايةٍ للعمر، وفناءٍ للروح.
لم أكن أرغب في التفكير في الموت، وإذا تكلّم عنه أحدهم كنت أجد في نفسي رغبة في إسكاته، كنت أخاف أن ينغّص عليَّ ذلك متعة العيش.
بعد حديثنا، لم أعد أفكّر كذلك، وفهمت أن خلف الوجه الأسود للموت وجهًا آخرَ جميلًا جدًّا. وعلمت أن ظاهره مُرعبٌ، وداخله ودود. لا يمكنني أن أصف لك مقدار سعادتي وابتهاجي. من الجيّد أنّ هناك حياة بعد الموت، ومن الجيّد أنّ أحبابنا الميتين لن يفْنَوْا.
ما دمنا نتحدّث عن الموت، لَدَيّ سؤالٌ آخرُ لك. الناس يُمتحنون في هذا الكون، فمنهم من يستحقّ الجنّة، ومنهم من يستحقّ النار. حسنًا، ماذا عن الذين يموتون أطفالًا، إلى أين يذهبون؟
الذين يموتون وهم أطفال يدخلون الجنة، ويُصبحون على حَدّ عبارة الآية «ولدانًا مخلّدين». وإذا كان آباؤهم، وأمهاتهم من أهل الجنة، فسيُعطون إيَّاهم، ويعيشون مع الوالدين. وبذلك يستمتع الوالدان بلذّة محبّة الولد إلى الأبد.
الجنّة ليست مكان تكاثر في الحقيقة، ولكنّ محبّة الولد موجودة هناك أيضًا. وأهل الجنّة سيحبّون الأطفال القادمين من هذه الدنيا.
هذه هديّة عظيمة لمن فقدوا أطفالهم في عمر صغيرٍ. طبعًا إذا صبروا على موتهم، ولم يتمرّدوا.
وأطفال غير المسلمين أيضًا يدخلون الجنّة إذا ماتوا قبل البلوغ؛ لأنهم أبرياء، وخُلِقُوا على فطرة الإسلام. أمَّا أمهاتهم، وآباؤهم الكافرون، فلا يشملهم ذلك. ولا حديث هُنا عن دخولهم لامتحانٍ، وإخفاقهم فيه.
وهناك بعض الأطفال، حتّى وإن ماتوا أطفالًا، فإنهم سيكونون كبيرين في الجنّة، وسيستمتعون كما يستمتع الكبار.
الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السبع سنين، وعمر البلوغ ومع ذلك يتعبّدون مثل الكبار، فيصلّون، ويصومون من قبيل النافلة، وليس ذلك مطلوبًا منهم. هؤلاء الأطفال سيكونون في عمر أهل الجنّة؛ لكي ينالوا مكافأةً كمكافأة المتدينين من الكبار.

أنا أحب الحديث مع جدّي كثيرًا، فهو يأتي إلينا أحيانًا، وبمجرّد مجيئه أمسك بتلابيبه، وأبدأ في طرح الأسئلة عليه، فيشرع في تكرار ذكرياتِهِ، وأنا أستمع، كما أنه يتحيّن الفرصة للحديث عن استشهاد والده، فهو يجد لنفسه حظًّا من الفخر في ذلك.
أمس جاء مع جدّتي، وتحدّث من جديد عن استشهاد والده، وأثناء الحديث قال إنّ «الشهداء لا يموتون»، فسألته: «وكيف يكون ذلك؟»، لكنه لم يتمكن من تقديم جواب مُقنع.
هلّا أجبتَ أنت، ما معنى أنهم لا يموتون؟ وإذا لم يموتوا بالفعل، فأين هم الآن؟ هل لهم علاقة بنا؟
نعم، الشهداء لا يموتون. يجب أن نُدرك مقولة إنّ «الشهداء لا يموتون مثل بقيّة الناس».
فالآية تقول: «وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ»، فالمؤمن الذي يموت في حربٍ للحقّ، أي أثناء الجهاد يُعتبرُ شهيدًا شرعًا، أما المؤمن الخالص الذي يُقتلُ مظلومًا، أو بسبب بعض الأمراض المُحدّدة، فإنّه حُكمًا يعدُّ شهيدًا.
الشهيد وليٌّ واصلٌ، فهو يمكنه أن يصل في يومٍ واحد إلى المقامات التي نالها الآخرون بعد أزمان طويلة.
لكن يجب أن يكون مَنْ تُوُفّيَ أثناء الجهاد ذا إيمانٍ صحيحٍ، ونِيَّةٍ خالصة. والمُحارب من أجل الشهرة، والمال، والمنصب لا يكون مجاهدًا، ولا شهيدًا.
حسنًا، من أين لنا أن نعرف إن كان إيمان الميّت صحيحًا، أو كانت نيّته خالصة؟
إذا لم يكن لذلك علامة واضحة بيّنة، فلا يمكننا أن نعرف، ونحن مكلّفون بحُسْنِ الظّنّ به فقط، ولا يجوز الدعوة إلى سوء الظّن بأن نقول: «ومن أين ندري، ربّما لم يكن مؤمنًا أصلًا، فقد كان مرتكبًا للمعاصي».
إن للشهداء حياةً هي واحدة من أصل خمس طبقات حياتيّة، فالنوع الرابع من الحياة خاصٌّ بالشهداء.
هذه الحياة أرقى من حياة الأموات العاديّين في قبورهم. تُشبه الحياة الدنيا ولكنها بلا كَدَر، ولا ألم.
الأموات العاديون يعرفون أنهم ميتون، والنعيم الذي يرونه في قبورهم ليس نعيمًا كاملًا.
في حين أنّ الشهداء لا يحسّون بأنهم ميتون، بل يظنون أنهم قد ذهبوا إلى عالمٍ أجمل، وهم لا يعيشون ألمَ الموت. ويتنعّمون نعيمًا كاملًا بالنّعم التي في عالم البرزخ.
كتابُ «مكتوبات» يُبيّن هذا الأمر بمثالٍ جميل:
دخل رجُلان في الحلم إلى قصرٍ مثل الجنّة. أحدهما كان يشعُر بأنّه في حلمٍ فلم تكتمل مُتعته، وما فَتِئَ يفكّر في النعيم الذي سيذهب بمجرّد استيقاظه. أما الثاني، فلم يكن يعرف أنه في حلم، فكان استمتاعه كاملًا، وهكذا هو الفرق بين حياة الشهداء في البرزخ، وحياة بقية الأموات فيه.
وكيف لمن يقدر على القيام بجميع أنواع الخلق، والإحياء ألّا يخلُق لبعض عباده عالمًا خاصًّا، وشكلَ حياةٍ خاصًّا بهم؟
إنّ الخالق الذي أوجَدَ حيواتٍ غير متشابهة الخصائص في كل من البرّ والجوّ والبحر لَقادرٌ حتمًا على خلق حيواتٍ مختلفة في عالم القبر أيضًا.

وقد خلق ذلك بالفعل، حيث أوجَدَ طبقات حياةٍ مختلفة لبعض عبيده الخاصّين. وهو بإمكانه أن يُكافأ برحمته الشهداء الذين بذلوا أرواحهم في سبيله، وقد كافأهم بالفعل. هذه الحقيقة أخبر بها القرآن الذي هو كلام الله، وأخبر بها نبيّنا صلى الله عليه وسلّم، والأولياء، فمن الذي بإمكانه أن يعترض على إجماع كبير كهذا؟

-60-

هذا ما كان ينقصني، سُرقت حقيبتي. أهذا شيءٌ جيّد؟ كنت أسير شاردة في منطقة مزدحمة، أظن أنه اقترب إليّ من خلفي، فخطفها مني بسرعة وهرب. ولم أدرك ما حدث، وأطلب المساعدة إلّا بعد أن ابتعد. النقود ليست مهمة، لكن في داخلها بطاقتي الشخصية، وبطاقتي المصرفيّة كذلك، وأشياء أخرى.
ذهبت فورًا إلى المصرف، وأخبرتهم بما حصل، قالوا اذهبي الى الشرطة.
لم أذهب، سيسألون أسئلة كثيرة، ولا أعتقد أنهم سيجدونها.
كيف ستكون حالة هذا البلد؟ لقد توترت أعصابي والله.
في وضح النهار، وفي مركز المدينة أيضًا، وأنت مكتوف اليدين لا تستطيع أن تفعل شيئًا.
ماذا لوكان الذي سُرقت نقودُهُ طالبًا فقيرًا؟ أو أمًّا معدمةً تسعى لتأمين قوت بيتها؟ أليس عند هؤلاء البشر رحمة؟
لم أخبر أهلي؛ لأني أتوقع ما سيقولونه لي: «لو كنت حَذِرَة يا بُنَيّتِي»، وهكذا.
في الحقيقة كنت سأتحدث عن شيءٍ آخر.
كنت أختنق في المنزل، ركبت سيارتي، وذهبت الى بيتي الصيفي، وبقيت في الخارج حتى منتصف الليل، استلقيت على الرمال، وشاهدت النجوم في السماء. كنت قد أخذت دفتري معي، كثيرًا ما تخطر ببالي أمور جميلة، فأكتبها مباشرة. وأظنّ أن هذا البحر الهائج جعلني أنفعل أيضًا. لقد تموّجتْ روحي، فكرت بك، إن الحقيقة التي تختفي وراء وجهك جعلت تخيلك أمرًا مثيرًا. أتحدث اليك كإنسان بمودّة، ومن داخلي من دون أحكام مسبقة، لقد اهتممت بي، واستمعت إلي، وفي الأوقات الصعبة كنت بجانبي.
كن بجانبي! هل اتفقنا؟
أحيانًا أتجاوز حدودي، وأشاكس، لكنك عرفت أني بدونك لا أستطيع فعل شيءٍ.
لا تلُمْني إذا تجاوزت حدودي، لا تُوَبّخْني؛ لأني ألوم نفسي بما فيه الكفاية.
لا أتحكم بكلماتي، ولكني سرعان ما أندم، عندها يكون قد سبق السيف العذل.
الآن أنا في حالة مسحوقة خرجت عصارتها، أحاول أن أستجمِعَ قوايَ.
وعدتني أن ترسل لي صفحات من دفتر ملاحظاتك، أعتقد أنك نسيت.
أنا أنتظر.

-61-

لا، أنا أحاكمك، ولا ألومك، ولا أوبّخك، حاشايَ، فأنا مشغولٌ بنفسي أصلًا.
أنت أردت محادثتي، وأنا أشاركك معلوماتي وأفكاري. ينحصر عملي في أن أفتح أبواب ذهنك، والقرار الأخير بلا شك بيدك.
يجب على الإنسان أن يتعلم محاكمة القيم ليس لمحاكمة الآخرين، بل لمحاكمة نفسه.
ما أجملَ هذه العبارة التي ينقلها الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن عيسى عليه السلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد».
نعم، لقد كنت وعدت. هذا واحد منهم، مقطع من عالمي المخفي:

«ساخطٌ عليّ فؤادي
يفكر أنني أهملته.
أحاول أن أراضي فؤادي.
حطمتُ القفص، وهدمت الجدران.
نجا من الظلمات، أبصر النور.
وصار يتلقى الرياح من كلّ صوب.
وبدأت عُقدة الحياة بالنهوض،
برعمت، وأورقت.
على وشك الإزهار.
قريبٌ ترنّم البلابل.

لقد أصْغَيْتَ إلَيّ، وفهمْتَني. وأجبتَني إجاباتٍ مقنعةً عن أسئلتي التي لا تعرف الانتهاء. لن أفِيَكَ حقّكَ مهما شكرتك.
جعلتني أحِسّ بما وراء الحُجُبِ. أرحت روحي.
الآن أنظر إلى الأحداث نظرة جديدة.
لكنّ عندي مشكلاتٍ أخرى. ثمّة حزنٌ لا يهدأ يحرق قلبي، آمل أن تكون نهايته جميلة.
كتبت كلمة قصيرة عن الحزن:
الفرحُ منعشٌ.
والحزنُ حارقٌ.
تعالَ أيّها الحزنُ.
ابقَ معي.
أحرِقْ، أَذِبْ، قَطّرْ.
المحترق لا يحترق.
انظرْ
الروحُ في خَلْوَةٍ
وفرحٍ صافٍ بالباب.»
هذا كل ما في الأمر. لا أستطيع إلَّا أن أشاركك ما أفعل؟ ما أكتب؟
لا تغلق بابك بوجهي، ولا قلبك. أختنق. تعرف أنني أتنفس، وأعيش بكِ.
جمل قصيرة، لكنها جميلة ومعبّرة، وخاصة عبارة «المحترق لا يحترق» أثّرتْ فِيَّ كثيرًا.
قلبي وبابي مفتوحان على مصاريعهما لإنسان يثق بي إلى درجة يشاركني فيها حزنه، وألمه، ومعاناته بصدق.
لا أدري إن كان ينفع أم لا، لكني سأقول لك ما أقوله لنفسي في الأوقات الصعبة:
الحزن نعمة لمن يعرف قيمته، رأيت أن الناس الذين يعانون يكونون حسَّاسين أكثرَ، إنهم يفهمون عجزهم بشكلٍ أفضلَ.
هذا يزيد أيضًا وعيهم الإنساني، يجعل الإنسان يتساءل عن معنى الحياة، يفهم أسباب الوجود بعمق.
حاولي أن تحبّي حزنك؛ لأنه نار ينضج روحك، ويوصلك للكمال.
إن حياة لا تأخذ شكلها بالمصائب، ولا تنضج لَهِيَ حياةٌ عادِيّة.
يتحوَّل الحديد الخام إلى فولاذٍ بصَهْرِهِ في النار، وتبريده في الماء، وطرقه بالمطرقة.
اتّجهي صوبَ الرحمةِ، والألم محرّك الدعاء، يحرّك الإنسان.
الإنسان الذي لا يتلقّى المصاعبَ ينسى لماذا أُرْسِلَ إلى هذه الدنيا.
يغرق في الغفلة، يضيع عمره فيما لا ينفع، في النهاية يندم.
إن هذه الدنيا فانية بحُلوها ومُرّها، تأتي وتذهب. تذكّري هذا دائمًا.
لا تعترِضي على القدر، الاعتراض لا يزيل البلاء عنك، على العكس من ذلك يزيده أضعافًا، الاعتراض يعمِّق الجرح، كالذي يصارع بيد مكسورة.

لا تستسلمي، ولا تلجئي إليه، وإذا استمرّ اعتراضك، فإنك تزيدين آلامك، إن آمنت بالقدر تأمني الكدر.
اكتبي لي وقتما تشائين. إذا سمح (صاحب القلم) سنتحدث مرة أخرى.

ـ تمت ـ

للقارئِ الذي يبدأ قراءة الكتاب مِنْ آخرِهِ:
إنّي لأَعْجَبُ عَجَبًا شَدِيدًا!
مِمَّنْ عَاشَ دُونَ أنْ يَبْحَثَ عَنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ،
أَوْ دُونَ أنْ يُوَاجِهَ الْمَوْتَ.